

التبرير و المصالحة

في المسيح يسوع

بحسب تعليم القديس

يوحنا ذهبى الفم

اسم الكتاب : التبرير والمصالحة في المسيح

اسم المؤلف : القديس يوحنا ذهبي الفم

المطبعة : جي سي سنتر - ١٤ محمود حافظ ميدان سفير.
ت: ٢٧٧٩٦١٣٧

الطبعة : الأولى مارس/ ٢٠١٧

رقم الإيداع : ٢٠١٧/٧٠٠٣



قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

فهرس المحتويات

المصالحة في المسيح

القديس يوحنا ذهبي الفم

وُلد القديس يوحنا ذهبي الفم في مدينة أنطاكية سنة ٣٥٤م، في عصر استشرى فيه الفساد وانتشرت فيه الآثام والمعاصي، حيث كانت تشيع فيه روح البذخ والتنعم والافتخار بالثروة، وامتلاك القصور والعبيد والإماء، والانهماك في الشهوات والملذات. وكان القديس يوحنا ذهبي الفم يراقب كل هذا عن كثب، وكان يرى أن هذا المناخ لن يُفرز إلا تقسيمًا للمجتمع على أساس طبقي، وتمييزًا بين الأغنياء والفقراء، وإتساعًا لمساحة الظلم الإجتماعي، ولذلك فقد جاهد لرفع هذا الظلم، وإزالة هذه الفوارق الإجتماعية المعية، وكرّس حياته لنشر كلمة الإيمان، وتحقيق حياة الفضيلة، والسعي في خلاص النفوس بلا فتور. وفي كل هذا لم يكن يخشى أحدًا مهما كانت مكانته، بل إنه هاجم أباطرة بسبب سلوكهم غير المستقيم، وأيضًا لم يكن يتردد لحظة في مقاومة الظلم مهما كلفه هذا من متاعب، ولم يثنيه الاضطهاد عن التشبث بالحق والتمسك بمبادئه.

كان والده قائدًا للجيش، أما أمه وتدعى "أنثوسا" فقد ترملت في سن مبكر جدًا، وقد رفضت هذه الأرملة الشابة التقية الزواج مرة أخرى وكرّست كل حياتها لتربية يوحنا تربية روحية مستقيمة. وكان لهذه النشأة الروحية أكبر الأثر في حياته فيما بعد. فقد مارس حياة النسك فعليًا حتى أثناء تواجده مع أمه، لكن بعد انتقالها، ترك منزله وتوجه إلى البرية ليقضى ٤ سنوات في النسك إلى جوار ناسك سوري، ثم قضى سنتين بمفرده في احدي المغائر في جبال أنطاكية. إلا أن تدهور حالته الصحية أجبره على العودة إلى المدينة (أنطاكية). وقد تعمق في العلوم اللاهوتية أثناء

فترة تنسكه تعمقًا كبيرا، ظهرت نتائجه في تعاليمه اللاهوتية حتى أنه لُقب بذهبي الفم[1].

في عام ٣٨١م رسم شماسًا بيد الأسقف ميليتيوس، وفي هذه الفترة كتب عدة كتب منها:

١. ضد اليهود،

٢. ضد يوليانوس والأمم،

٣. عن البتولية،

٤. رسالة تعزية إلى أرملة شابة،

٥. الدفاع عن الرهبنة،

٦. الزواج ينبغي أن يكون مرة واحدة،

٧. ثلاثة رسائل إلى الراهب ستاجيريوس[2].

وفي عام ٣٨٦م رسم كاهنًا، ومن هذه اللحظة بدأ خدمته الحقيقية ونشاطه المكثف، وصارت له شهرة واسعة، حيث ذاع صيته من خلال عظاته المتميزة وقدرته على الخطابة. ولم تقتصر خدمته فقط على عمله الوعظي والتبشيري، لكنه انشغل أيضًا وبشكل أساسي بأعمال الرحمة في خدمة الفقراء والمعوزين، ولهذا فقد كرّس جزءً كبيرًا من حياته في خدمة كل مَن له احتياج، الأمر الذي جعله محبوبًا جدًا في كل أنطاكية. وقد عاش حياة متقشفة، وكان ملبسه خشنًا ومأكله بسيطًا، وكان يدوام على

---

١ Δ.Γ.Τσαμης. ˝ Εκκλησιαστική Γραμματολογία ˝. Θεσλνίκη 1992, σελ.163 -164.

٢ Palladuis 5.

أفتقاد الفقراء في بيوتهم ويزور المرضى والمسجونين ليخفف من آلامهم، وقد أكد بهذا السلوك على أن الحياة التعبدية لا يمكن ولا ينبغي أيضًا أن تكون في عزلة عن الحياة العملية، وبمعنى آخر لم تكن التقوى عنده بديلاً عن العمل.

في عام ٣٩٧م - وبأمر من الإمبراطور أركاديوس - ذهب إلى القسطنطينية، لتقلد الكرسي البطريركي، فقد أجمع القسوس وكل الشعب على تزكيته لهذا المركز الرفيع على غير رغبته. وقام برسامته البابا ثافيلوس الأسكندري سنة ٣٩٨م. ومنذ ذلك الحين عاد النظام إلى بطريركية القسطنطينية، فاعتنى بالحياة الروحية للمؤمنين وكثف من عمله التبشيري ونجح في ضم كثيرين من الهراطقة والوثنيين إلى الطريق الأرثوذكسي القويم. وبسبب استقامة رأيه وجرأته في الحق، تصادم مع كثيرين منهم الإمبراطورة أفذوكسيا والوزير الأول في الإمبراطورية أفتروبيوس. وقد وُجهت له اتهامات عديدة وأُجبر على النفي ولكن بسبب زلزال أصاب المدينة (القسطنطينية) - قال البعض إن هذا قد حدث بسبب نفيه - فأمرت الإمبراطورة بعودته من المنفى. لكن بعد شهرين من عودته اختلف مرة أخرى مع أفذوكسيا، وأُقتيد إلى المنفى، وكانت أول محطة له هي مدينة كوكوسوس الأرمنية، وبعد وقت قليل صدر أمر آخر بإرساله إلى مدينة بيتوندا في الضفة الشرقية للبحر الأسود. لكنه لم يصل إلى هناك لأن الطريق كان طويلاً وشاقًا. وبسبب المتاعب الكثيرة والمعاملة السيئة التي لاقاها، تنيح في الطريق سنة ٤٠٧م[٣].

[٣] المرجع السابق، ص١٦٥.

وتحتفل الكنيسة بتذكار نياحته في ١٧هاتور ٢٧نوفمبر.

كتابات القديس يوحنا ذهبي الفم:

القديس يوحنا هو من أكثر الآباء إنتاجًا، حيث تقع مؤلفاته في ١٧ مجلدًا في مجموعة الآباء باللغة اليونانية (Π.Γ. 47-64). وقد تنوعت كتاباته بين:

عظات تفسيرية:

+ سفر التكوين: ٨ عظات، تشكل تفسيرًا شاملاً للسفر.

+ شرح المزامير: ٥٨ مزمورًا.

+ سفر إشعياء (٦ عظات).

+ إنجيل متى (٩٠ عظة)، تشكل تفسيرًا كاملاً.

+ إنجيل لوقا (٧ عظات).

+ إنجيل يوحنا (٨٨ عظة).

+ أعمال الرسل (٦٣ عظة).

+ عظاته على رسائل القديس بولس وهى تشكل نصف عظاته تقريبًا وتشغل الرسالة إلى رومية النصيب الأكبر من هذه العظات.

كتابات عقائدية:

+ ضد الأنوميين ١٢ عظة خُصصت للحديث عن الطبيعة الإلهية غير المدركة (Ἀκατὰληπτο τῆς θείας φὺσης)

+ ١٢ عظة " للمعمدين الجدد".

+ ٨ عظات " ضد اليهود".

عظات في موضوعات متفرقة:

+ عن الرحمة.

+ عن المجد الباطل وكيفية تربية الأولاد.

+ ثم عظات عن الكهنوت (٦ كتب عن سمو الكهنوت والمواهب والواجبات التي ينبغي توافرها فيمَن يتقدمون لنوال سر الكهنوت).

+ عن الحياة الرهبانية.

+ عن الزواج والبتولية

عظات في الأعياد والمواسم:

+ عن ميلاد المخلّص. + عن الظهور الإلهي.

+ عن عيد الخمسين. + عن صلب المخلّص.

+ عن القيامة. + عن الصعود.

+ ثم عظة عن خيانة يهوذا.

مديح للشهداء والأبرار القديسين:

مثل أيوب، المكابيين، الشهداء الأساقفة القديسين، القديس بولس.

رسائل:

+ كتب ٢٣٦ رسالة ومعظمها أُرسلت من المنفى.

+ ١٧ رسالة إلى الشماسة أولمبيا والتي كانت تعاونه في خدمته.



مقدمة



مقدمة

إن الحياة الجديدة، حياة البر والقداسة التي تحققت في المسيح، أي من خلال ذبيحة المسيح على الصليب، تتجلى في هذا القرار الإلهي، المتمثل في بذل إبنه الوحيد من أجل حياة العالم كله، وذلك في مواجهة كل محاولات البشر الباحثين عن الخلاص من الموت والفساد. فكل شيء جميل وعظيم في إطار النظام الطبيعي المتعلق بحقائق هذا العالم المادي، ينبغي أن تُكتسب بالمحاولات الخاصة بكل أحد، سواء كان علم، أو فن، أو أدب، أو مناصب سياسية أو إجتماعية، ويمكن للإنسان أن يفتخر بكل هذه الأمور. إلا أنه، فيما يتعلق بالأمور السامية التي يمكن للإنسان أن ينالها في ملكوت السموات، فليس هناك إنجاز يمكن أن يتحقق بمعزل عن الله. فالعلاقة الخاصة مع الله، بأن نصبح أبناء له. يمكن أن ننالها كعطية من الله فقط، وذلك بسبب محبته الفائقة نحو البشر. فالخلاص والبر قد أُعطيا للإنسان، دون أن يُقدم أي شيء على الإطلاق، لأن المسيح لم يُقدم ذاته ذبيحة بالمصادفة. أو تحت ضغوط نفسية، أو ضرورات سياسية، بل فقط بدافع محبته غير المحدودة لكل البشر. هكذا تدخَّل الله كليّ القداسة في تاريخ الإنسانية، بفعل محبة واضح، حتى يسمو بالإنسان إلى مستوى حياة عدم الفساد. لأن المحبة هبة، وإلا لما كانت لها أن توصف هكذا، بأنها محبة. فالله هو الذي يجدِّد نفس المؤمن، ويغيرّها، ومن خلال الولادة الروحية، يُعيد خلقها مرة أخرى، جاعلاً إياها كون جديد. لذلك يجب على كل إنسان أن يُكرّس حياته للمسيح، ويسلّم نفسه للإرادة الإلهية، وأن يحيا في ملء هذه الحياة الجديدة، لأن في شخص المسيح له المجد، يتهاوى ويسقط

كل إفتخار إنساني. وكل بحث عن الله من قِبل الإنسان، لا يضع في إعتباره إعلان الله عن الخلاص في المسيح، فهذا يُعَد تجاوز للحقيقة، بل وخطأ كبير. الأمر في مجمله مرتبط بالإيمان ببر الله الذي إستُعلن في المسيح يسوع، لكن هذا الإيمان ليس إنجاز إنساني، أي ليس إفراز لإجتهادات عقلية، بل هو هبة إلهية مُعطاه بالروح القدس. هو بالحقيقة سر، مُفتاحه مُعلن في أعماق القصد الإلهي قبل كل الدهور. هذا التعليم الخاص بالتبرير والذي وجّهه الرسول بولس إلى اليهود الذين آمنوا، قد أسسه على مبادىء إيمانية، مُشيرًا إلى إيمان إبراهيم أبو الآباء الذي كان قويًا في إيمانه، وقد حُسب له إيمانه برًا. ولأنه تبَّرر بالإيمان، فقد إمتدحه الرسول بولس، داعيًا إياه " أبونا إبراهيم"، فهو على خلاف الرجاء آمن على الرجاء لكي يصير أبًا لأمم كثيرة. ولم يشك في وعد الله بل تقوى "بالإيمان"، وقد دعى الرسول بولس اليهود، لكي يقتدوا به في كل شيء. هذا البر الذي بالإيمان هو الذي يحقق لنا السلام مع الله، بشرط تبعية ذاك الذي بررنا وقدسنا في ذاته، لذلك يجب أن نضع رجاءنا في المسيح وحده. وإن كان قد صالحنا بموته، فبالأولى كثيرًا الآن ونحن مصالحون نخلص بحياته.

لكن البر، هو بداية فقط، فالحياة الجديدة لا يمكن أن ينالها أحد من ذاته، بل يجب أن يقبلها كعطية. وبما أنها عطية، فيجب أن تنمو في توافق وتجانس مع القدرات التي وُهِبت له. لأن الحياة الجديدة لا يمكن لأحد أن يكتسبها، وأن يصل إليها في عَجَالة أو دفعة واحدة. ولأجل ذلك يجب على الإنسان المتجدد أن يُنمي شركته مع المسيح، وأن لا يخضع للفكر الجسداني، وأن لا ينجذب لشهوات الجسد، بل أن يستجيب إلى إرشاد الروح القدس، حتى يثبت في هذه الحياة بالنعمة التي ترافقه كل أيام حياته،

وهكذا ينتقل من مجد إلى مجد، إلى أن يصل إلى كمال الحياة الأبدية التي نترجاها.

وإلا سيصبح الأمر، تمامًا مثل تمثال بلا رأس وأطراف،لو أن الله ترك عمله داخلنا غير مكتمل، ولو أنه بعد كل هذه الأعمال العجيبة، مثل موت وقيامة المسيح، وإرسال الروح القدس، والتقديس، والتبرير، قد ترك الخلاص المقدم لأجل جنس البشر، عُرضه لأن يُحطمه الموت، أي لو ترك هذا العمل الخلاصي لطغيان الموت مرة أخرى، وإستبداد الشيطان، وسيادة الخطية. لذلك فمن خلال ختم الروح القدس الذي أخذناه في الميلاد الثاني والميرون، يكون الله قد أعطانا روحه، الذي جعلنا في وحدِّة وإتحاد معه إلى الأبد. لذلك فالكلمة الأخيرة في تاريخ الإنسانية لن تكون أبدًا هي كلمة الموت، بل كلمة التجلي، والمجد، والتبرير. هذا الإتحاد بالله، قد بيَّن قصد الله السابق من جهة خلاص جنس البشر. ومحبته الفائقة التي إستُعلنت في بذل إبنه الوحيد. فالله لم يضع ختمه وتوقيعه، حتى تصير النفس سحابة بخار تتبدد داخل هذا الكون.

فكل ماسأة الوجود الإنساني، هي بمثابة تنهّد يحمل داخله شوق ورغبة للسمو نحو المجد الإلهي الذي يتردد صداه في هذا الكون الفسيح " لأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ، قُدْرَتَهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلاَهُوتَهُ"[4].

إن تعليم الرسول بولس عن الغاية أو القصد الإلهي من جهة تبرير الإنسان وتقديسه في المسيح، يظهر بوضوح في رسالته إلى أهل رومية، إذ يقول إن المسيح قد " أُسْلِمَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا وَأُقِيمَ لأَجْلِ

---

[4] رو ١: ٢٠.

تَبْرِيرِنَا"[٥]، وأيضًا يقول: "كَمَا مَلَكَتِ الْخَطِيَّةُ فِي الْمَوْتِ، هكَذَا تَمْلِكُ النِّعْمَةُ بِالْبِرِّ، لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ. بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا"[٦]. فتاريخ البشرية، وخلق العالم. لا يمكن أن يُفسر من تلقاء ذاته. بل التفسير الوحيد لكل هذا. يتضح ويستعلن في شخص المسيح الذي أنار الحياة والخلود، وأنعم علينا بالحياة الأبدية. هكذا يقول الرسول بولس: "كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ (مُبررين) قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ"[٧]، وأيضًا: "فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشًا أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ. الَّذِي هُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَفِيهِ يَقُومُ الْكُلُّ"[٨]. وأيضًا: "نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَعْمَال صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ اللهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا"[٩].

هذ ا الأمر قد إستُعلن للرسول بولس، بحسب قوله "أَنَّهُ بِإِعْلاَنٍ عَرَّفَنِي بِالسِّرِّ"[١٠]، وهو يقصد بالسر هنا، سر المسيح، لأنه أكد على ذلك مرارًا كثيرة في رسائله، وكان يشعر بإلتزام وإلحاح داخلي، بأن يكرز بذلك، لإعلان هذا السر للعالم كله، حتى ينير الجميع كما يقول: "فِي مَا هُوَ شَرِكَةُ السِّرِّ الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ فِي اللهِ خَالِقِ الْجَمِيعِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ"[١١].

---

[٥] رو ٤:٢٥.
[٦] رو ٥:٢١.
[٧] أف ١:٤.
[٨] كو ١:١٦، ١٧.
[٩] أف ٢:١٠.
[١٠] أف ٣:٣.
[١١] أف ٣:٩.

لقد أكّد الرسول بولس على أن عطية البر هي لله وحده، فليس في مقدور أحد أيا كان، ولا حتى الملائكة، ورؤساء الملائكة، أن يمنحوا هذا البر. إذ يصفه، بأنه "بر الله"، وقد إستشهد بالناموس والأنبياء، لإعلان هذه الحقيقة. والعهد القديم قد أشار إلى هذا الأمر من خلال تقديم الذبائح التي كانت تشير إلي ذبيحة المسيح لغفران الخطايا، كما يقول: "إظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة"، كي يجعل أولئك الذين فسدوا بالخطية، أبرارًا. لأن رجاء شفاء النفس هو في الله، هكذا يقول القديس يوحنا ذهبي الفم شارحًا هذا المعنى [تمامًا مثل الجسد المقعد الذي إحتاج إلى معونة الله، هكذا أيضًا النفس التي ماتت، كانت تحتاج إلى الصفح بإمهال الله. وهذا قد تجلّى في محبة الله الفائقة نحو البشر، إذ قدَّم إبنه الوحيد من أجل خلاص العالم كله. فتحقق شفاء النفس بشكل تام وكامل "لأن فيه (أي في المسيح) مُعلن بر الله". وليس لأحد فضل في ذلك، لا اليهودي، ولا الأممي. فالذي يَخلص، وينعم بهذا الخلاص، يخلص لأنه تبرر بالإيمان. "فأمن إبراهيم بالله. فُحسب له برًا". وهذا الإيمان يحتاج إلي نفس نقية، وإلي تكريس هذه النفس بالكامل لله، وإعطاء المجد له، لأنه أنعم علينا بفيض بره.

هذا البر هو أعظم بكثير من المكأفاة، لأن البر كما يقول القديس يوحنا ذهبي الفم هو التعويض الذي يشمل مكافأت كثيرة. لذلك فقد وعد الله بخيرات غير مُعلنة، تفوق كل فكر، ومن غير الممكن التعبير عنها، ومن أجل هذا نحن نفتخر على رجاء مجد الله. أما من جهتنا نحن، فلكي نتمتع بكل هذه العطايا، فعلينا فقط أن نؤمن، لأن الرسول بولس يقول: " بالإيمان

إلي هذه النعمة التي نحن فيها مُقيمون"، نعمة إستحقاق معرفة الله، ونعمة الخلاص من الخداع، ونعمة معرفة الحقيقة، ونوال كل هذه الخيرات بالمعمودية. فنعمة الله لا نهاية لها، ولا تعرف التوقف عند حد معين، لكنها تقود نحو الأمور السمائية، وهذا كله خارج قدرات البشر، لأن الخيرات الإلهية لا تخضع لتحولات، فلا يستطيع أي إنسان، ولا الزمن، ولا الظروف العارضة، ولا الشيطان، ولا الموت، عندما يأتي، أن يُبعدنا عن هذه الخيرات. وكل هذه الخيرات تُساهم في إعلان مجد الله، ولذلك نحن نفتخر بهذا الرجاء المتعلق بخيرات الدهر الأتي، لأن الذي وعد، هو حي على الدوام.

هكذا فإن موت المسيح على الصليب، كان لأجل الخطاة، إذ ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا، وبهذا صالحنا مع الآب، وخلصنا، وبررنا، وجعلنا أبناء وورثة، بل وأقوياء في مواجهة الموت. وهذا كله دليل على محبة الله الفائقة، لأنه قدَّم نفسه للموت من أجل الخطاة، حتى يُبرِّر الجميع.

من أجل ذلك يجب أن نفتخر بالله بربنا يسوع المسيح الذي به نلنا المصالحة بحسب تعبير الرسول بولس، نفتخر بمحبة الله الغامرة، لأنه أحب حتى الذين أبغضوه. لقد إنتهى الأمر بقبول عطية التبرير، وحيث يوجد بر، فبالضرورة ستتبعه حياة ممتدة، وخيرات لا تُحصى، لأن البر هو جذر وأصل الحياة. إذًا فنعمة المسيح قد خلَّصت الكثيرين، إذ لم تمحى خطية واحدة فقط، بل جميع الخطايا، بل ووهبت البر أيضًا. فبعد أن كنَّا تحت حكم الموت، صرنا أبناء، وتقدّسنا، وصرنا أخوة لإبنه الوحيد، وورثة معه، وإتحدنا معه في جسد واحد، وإلي هذا الجسد نحن نتمنى، هكذا يقول القديس

يوحنا ذهبي الفم. وكل هذا دعاه الرسول بولس "فيض النعمة" ، لأننا تجاوزنا كل تشوهات الخطية، وما نتج عنها من موت، وحصلنا على شفاء، وجمال، وكرامة، وعلى أكاليل ومكانة تفوق كثيرًا طبيعتنا الفانية. لأنه كما سادت الخطية وملكت في الموت، هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح، إذ أن هذا البر قد محى الخطية، وقد أتى لا بمساعدة إنسان أو ملاك، بل بمعونة الله ونعمته، حتى يقودنا إلي الحياة السمائية، وإلي خيرات لا تُحصى.

لذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم [هذا يدعوك إلي عدم الشك في الحياة الأبدية، طالما أنك تبررت، لأن البر أسمى من الحياة، إذ أنه هو الذي يلد الحياة الحقيقية].

إذًا فقد بُطل الموت وفَقَدَ سلطانه إلي الأبد ، والآن نحن نتمتع ببر المسيح وعطاياه الوفيرة، وأن قوة الحياة التي نحياها الآن هي بالروح القدس الساكن فينا. ولذلك يطالبنا الرسول بولس بأن نُقدم ذواتنا لله كأحياء من الأموات، وأعضاءنا آلات بر. إذ ينبغي أن نخضع للبر الذي يقود إلي الحياة، لأن العبودية للبر، هي أفضل من أي حرية دُنيوية زائفة، فقد إرتفعنا إلي أعظم كرامة، وتحررنا من الخطايا السالفة، هكذا قادنا المسيح له المجد إلى الحياة الملائكية، وفتح أمامنا الطريق المؤدي إلى الملكوت، بعد أن سلّمنا إلي البر، وأمات إنساننا العتيق، حتى نحيا في جدة الحياة.

ولذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم [مَن هو ذاك البائس التعس الذي يُفضِّل العبودية للخطية وللشيطان على العبودية للمسيح، لأن العبودية للخطية، لن تأتي بأي ثمر، أما العبودية للبر، فتأتي بثمار القداسة والنقاوة، ونوال هبات الله المتنوعة والكثيرة].

وهكذا أصبح آدم الثاني، هو بداية كل الصالحات للطبيعة الإنسانية، ومُحرر الإنسان من الفساد الدخيل، ومانح الحياة الأبدية، وأساس المصالحة مع الله، وبداية التقوى والبر، والطريق إلى ملكوت السموات. وكما يقول ق. كيرلس الكبير [لقد مات حمل واحد عن القطيع كله، لكي يخلص القطيع كله لله الآب][12]، وهكذا نصير نحن بر الله فيه بحسب تعبير ق. بولس.

فليبارك المسيح إلهنا هذا العمل لمجد إسمه، وبنيان كنيسته بصلوات والدة الإله العذراء القديسة مريم، وصلوات القديس يوحنا ذهبي الفم، وصلوات صاحب القداسة أبينا المعظم قداسة البابا تواضروس الثاني، ولإلهنا القدوس المجد والقوة والكرامة إلى الأبد آمين.

دكتور
سعيد حكيم

---

[12] "شرح إنجيل يوحنا"، للقديس كيرلس الكبير، الكتاب الثاني، ص١-٢٩، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد.

التبرير في المسيح



التبرير في المسيح

التبرير المجاني

إن بر الله بالإيمان الذي بيسوع المسيح هو إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون بحسب تعبير الرسول بولس. وهنا كما يقول القديس يوحنا ذهبي الفم، ينزعج اليهودي، إذ أنه لا يتميّز بشيء عن الآخرين، فهو مثله مثل سائر البشر الذين في العالم[١٣].

ولأن الرسول لا يشعر بهذا التميّز فهو يحاصره بالتخويف، فيقول: " لأَنَّهُ لاَ فَرْقَ. إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا"[١٤]. إذًا لا ينبغي لأحد أن يقول، إن هذا يوناني، وآخر سكيثي، وغيره من أهل ثراكي، لأن الجميع يرتكبون نفس الخطايا. أما أنت فعلى الرغم من أنك قد أخذت الناموس فإن شيئًا واحدًا تعلّمته من الناموس، هو معرفة الخطية وليس تجنبها، ولكي لا يقولوا بعد ذلك رغم أننا أخطأنا. فلسنا مثل هؤلاء (الأمم)، فقد أضاف " **وأعوزهم مجد الله**". وعليه فلو أنك لم تُخطئ مثل الآخرين، فإنه يعوزك **"مجد الله"** بنفس القدر، لأنك واحد من هؤلاء الذين عاندوا الله. إلاّ أن ذاك الذي عاند، ليس من بين أولئك الذين نالوا "المجد"، بل ينتمي لأولئك الجاحدين. وكأن الرسول بولس يقول إني قد قلت لكم هذه الأمور، لا لكي أقودكم لليأس، بل لكي أُظهر محبة الله الفائقة للبشر. ولهذا

---

[١٣] وفي هذا الصدد يفسر القديس إيلاريون اسقف بواتييه، كلمات الشاب الذي سأل المسيح له المجد: " أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية" (مت١٩:٦١)، فيقول: [أنه شاب يتفاخر بنفسه بسبب حفظ الناموس، لكنه لم يعرف غاية الناموس (رو١٠:٤)، الذي هو المسيح، وظن نفسه مبررًا بالأعمال دون أن يدرك أن المسيح قد جاء إلى خراف بيت إسرائيل الضالة (مت١٥:٢٤)، وأولئك الذين يؤمنون بأن الناموس لا يمكنه أن يخلّص إلا من خلال الإيمان بالتبرير]. عن الثالوث، للقديس إيلاريون أسقف بواتييه.

[١٤] رو٣:٢٣.

يقول: " مُتَبَرِّرِينَ مَجَّانًا بِنِعْمَتِهِ بِالْفِدَاءِ الَّذِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي قَدَّمَهُ اللّهُ كَفَّارَةً بِالإِيمَانِ بِدَمِهِ، لإِظْهَارِ بِرِّهِ، مِنْ أَجْلِ الصَّفْحِ عَنِ الْخَطَايَا السَّالِفَةِ بِإِمْهَالِ اللهِ"[15]. هنا هو يبرهن على الآتي:

أولاً: إن الذي يهب البرّ ليس إنسانًا، بل الله الذي يستطيع كل شيء، فالرسول بولس يصف هذا البر بأنه " *برّ الله* ".

ثانيًا: شهادة الناموس والأنبياء، فلا تخف عندما تسمع قوله "*بدون الناموس*"، لأن هذا ما يُعلنه الناموس نفسه.

ثالثًا: إن هذا البر قد تبرهن عليه من خلال الذبائح التي صارت في العهد القديم. ولهذا قال: "*بدمه*"، مُذكّرًا هؤلاء بالخراف والأبقار (الذبائح).

إذًا فلو أن الذبائح الحيوانية تمنح غفرانًا للخطايا كما يقول الرسول بولس، فبالأولى كثيرًا جدًا، فإن دم المسيح يهب هذا الغفران، وهو لم يقل بالعتق، لكن "بالفداء"، كما لو كان الأمر يتعلق بعدم العودة مرة أخرى لذات العبودية. ولذلك فقد دُعيَ المسيح **"كفارة"،** لكي يُبيّن أنه، إذا كان المثال يحمل هذا القدر من القوة، فبالأولى كثيرًا ستُظهر الحقيقة نفس الشيء وأكثر، موضحًا مرة أخرى أن هذا ليس بالأمر الجديد، ولا أنه يُسمع لأول مرة، وهذا يتضّح من قوله: " *قدّمه الله*" مُظهرًا أن هذا الإنجاز يتعلق "بالآب"، ونفس الأمر يذكره على أنه يتعلّق "بالابن". بالتأكيد الآب قدّمه (أى قدّم الابن)، لكن المسيح تمّم كل شيء بدمه.

---

[15] رو٣: ٢٤، ٢٥.

الصفح عن الخطايا

ثم يقول: " لإظهار برّه" ويتساءل ق. ذهبي الفم، ماذا يعنى "إظهار البر"؟ ثم يُجيب إن إظهار البر مثل إظهار الغنى، وهذا يعنى ألاّ يكون الله وحده هو الغني، بل أن هذا الغنى هو لآخرين أيضًا، لكى يجعلهم أغنياءً، ومثل إظهار الحياة، والذي يعني أنه ليس فقط هو الحياة، لكنه أيضًا يُقيم الأموات، ومثل إظهار القوة في ألاّ يكون ذاك هو القوى وحده، لكنه يجعل الضعفاء أقوياءًا. هكذا فإن إظهار البرّ هو، ألاّ يكون ذاك هو البار فقط، لكنه يجعل أولئك الذين فسدوا بالخطية أبرارًا على الفور، ولتفسير ذلك أضاف شارحًا معنى الإظهار: قائلاً: " لإظْهَارِ بِرِّهِ فِي الزَّمَانِ الْحَاضِرِ، لِيَكُونَ بَارًّا وَيُبَرِّرَ مَنْ هُوَ مِنَ الإِيمَانِ بِيَسُوعَ "[١٦].

وهذا يعني بحسب تفسير ق. يوحنا ذهبي الفم، أن البر يأتى من الإيمان وليس من الأعمال (أى أعمال الناموس)، ولا تخشى الإقتراب من "بر الله"، فإن صلاحه مضاعف، ولأنه ميسورًا، فإن الجميع يستطيعوا الوصول إليه. ثم يقول: ولا تشعر بالعار ولا تخجل، فإذا كان المسيح قد تجسَّد ليهبك بره، فيمكنك أن تعلن هذا وأن تفتخر وتتباهى، فكيف تتوارى وتخفي وجهك من هذا الذي به تمجّد سيدك؟ وإذا كان قد سَمَا بالمستمع، بقوله إن هذه الأمور التي حدثت، هى لإظهار بر الله، فإنه يُنبه محذرًا ذاك الذي يتردّد ويتجنّب الاقتراب، قائلاً: "من أجل الصفح عن الخطايا السالفة". أرأيت كيف أنه يذكّرهم دائمًا بالخطايا؟ لأنه قال سابقًا " *لأن بالناموس معرفة الخطية*" ثم بعد هذا يقول " *الجميع أخطأوا*"، بينما

---

[١٦] رو٣: ٢٦.

هنا يوضّح الأمر أكثر. لكنه لم يقل من أجل الخطايا، بل " من *أجل الصفح* " بمعنى "الصفح" عن "الخطايا التي تقود إلى الموت، لأن رجاء شفاء النفس هو في الله، تمامًا مثل الجسد المقعد الذي إحتاج إلى عون من الله، هكذا أيضًا النفس التي ماتت، والسبب الذي يذكره، دائمًا يثير شعورًا بالخوف، هو أن الإدانة ستكون أعظم. وما هى هذه الإدانة؟ هي تلك المرتبطة بالصفح الذي صار بإمهال الله. لأنه يقول لا يمكنكم أن تزعموا أنكم لم تتمتعوا بإمهال الله وصلاحه في الزمان الحاضر، ومرة أخرى يُظهر الإمهال الكثير ومحبه الله الفائقة للبشر . لأنه يقول عندما يئسنا، وكان زمن الدينونة، وازدادت الشرور وتفاقمت، تجلّت قدرة الله عندئذ، لكي تعلم مقدار فيض البرّ الإلهى، وهذا الأمر لم يكن له أن يُثير الدهشة والإعجاب، إن كان قد حدث من البداية، مقارنة بظهوره الآن حيث تأكد الشفاء الكامل (بالنعمة).

عظيم هو جهاد الرسول بولس، هكذا يقول ق. ذهبي الفم، فقد أراد أن يبرهن على أن الإيمان قد حقق الكثير، وهو ما لم يستطع الناموس أن يتخيّله أبدًا. إذًا بعدما قال إن الله يُبرّر الإنسان من جهة إيمانه، ينشغل مرة أخرى بالناموس، ولم يقل أين هى إنجازات اليهود، أين هى أعمالهم البارة، بل قال: " أين الافتخار"، مبينًا في كل موضع أنهم يفتخرون بالكلام فقط، كما لو كانوا يمتلكون شيئًا أكثر من الآخرين، على الرغم من أنهم لم يقدموا أى عمل . وبعدما قال " أين الافتخار"؟ لم يقل اختفى وانتهى، بل قال "انتفى"، الأمر الذي يُبيّن عدم موافقة أو ملائمة الوقت، لأنه لا يوجد زمن بعد. تمامًا مثلما يأتي وقت الدينونة، فإن أولئك الذين يرغبون في التوبة، لن يكون لديهم وقتًا . هكذا أيضًا

عندما يصدر الحكم فيما بعد، وعندما يتعلّق الأمر بفنائهم جميعًا، ثم يأتي ذاك الذي يُزيل كل هذه الأمور المخيفة بنعمته، فإن أولئك لن يكون لديهم وقتًا للتوبة أو تقديم مبررات وأعذار.

إذًا لو كان يحق لهم أن يدّعوا هذا، لكان ينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك قبل مجيء المسيح. لكن عندما أتى ذاك الذي يُخلّص بالإيمان، أختفى فيما بعد زمن الإفتخار بالأعمال (أي أعمال الناموس). ولأن الجميع مُدانون (لأنهم زاغوا وفسدوا)، لهذا فقد خلّصهم بالنعمة. ولذلك فقد أتى الآن حتى لا يقولوا إنه كان ممكنًا أن يخلصوا بالناموس وبأتعابهم وإمكانياتهم، لو أنه أتى من البداية. مُلجّمًا سفاهاتهم أو عدم حيائهم هذا. وقد انتظر زمنًا طويلاً، حتى بعدما إتضح جليًا من خلال كل الشواهد. أنهم لا يستطيعون أن يساعدوا أنفسهم، أتى في ذلك الزمان لكي يخلّصهم بنعمته. ولهذا بعدما قال سابقًا " لإظهار بره" أضاف " في *الزمان الحاضر*". لكن لو أن البعض يجادلون، فإنهم يشبهون شخصًا قد سقط في زلاّت كثيرة ولم يستطع أن يقدم تبرير عما فعل أمام المحكمة، ثم بعدما أُدين وكان ينتظر تنفيذ العقوبة، تُرك حرًا بواسطة عفو ملكي. فإذا تفاخر بعد هذا العفو، وقال إنه لم يصنع أي خطأ أو زلة، فسيكون عديم الحياء.

إذًا فقد كان من الممكن أن يُستعلن الله **الكلمة** قبل زمن النعمة، ولكن بعدما أتى، فلا يحق لأحد أن يفتخر. هذا بالضبط ما حدث بالنسبة لليهود. لأن إعتمادهم كان على أنفسهم، ولذلك كانوا مُدانين، وقد أتى **كلمة الله** لكي يقضي على افتخارهم بحضوره. لأن ذاك الذي يقول إنه معلّم الأطفال ويفتخر بالناموس،

ويدعو نفسه مهذب الأغبياء، مثل هذا يكون في احتياج لمعلّم ومُخلّص، وبذلك لا يكون لديه مبرر للافتخار. ومادام الرسول بولس قد بيّن أن الختان قد صار غرلة قبل مجيء المسيح، فبالأولى كثيرًا الآن، لأنه قد أُستُبعدَ من العهدين. وبعدما قال "انتفى" أوضح الوسيلة، وكيف انتفى، يقول "*بأى ناموس. أبناموس الأعمال، كلاّ بل بناموس الإيمان*".

وها هو يدعو الإيمان ناموسًا، حرصًا منه على إختيار الكلمات المعبّرة، حتى يفرحهم بهذا التجديد الواضح . ولكن ما هو ناموس الإيمان؟ هو أن يخلص الإنسان بالنعمة. لاحظ أن القديس بولس يُظهر هنا قوة الله، لأنه ليس فقط قد خلّص، لكنه أيضًا قد برّر، وقاد إلى الإفتخار الحقيقي دون الحاجة إلى أعمال الناموس، بل إلى الإيمان فقط. وهو يقول هذه الأمور، لكي يُعِد اليهودى الذي آمن ليكون متواضعًا، ولكي يُقَوِّمْ ذاك الذي لم يؤمن، بهدف أن يدعوه (للإيمان). وسيكتشف ذاك الذي خَلُص ـ إذا كان يفتخر بالناموس ـ إن الناموس قد أغلق فمه، وأدانه وحرمه من الخلاص، ومنع افتخاره. أما الذي لم يؤمن، فطالما أنه اتضّع عن طريق تلك الأمور، فيمكن أن يُقَاد إلى الإيمان. أرأيت مقدار الغنى الذي للإيمان وكيف أن القديس بولس إجتاز بهم الأمور السابقة (الخاصة بالناموس)، ولم يسمح لهم أن يفتخروا بها؟.

التبرير بالإيمان

وعندما أوضح أن الذين هم من الإيمان هم أسمى من اليهود، تكلّم عن الإيمان بعد ذلك بكل جرأة، مقدمًا الشفاء مرة أخرى لذاك الذي يريد أن يُثير صخبًا، لأن اليهود كانوا قد انزعجوا من أمرين:

الأول: أنه من الممكن للبعض أن يخلصوا بدون أعمال الناموس، لأن الذين تمموا أعمال الناموس لم يخلصوا.

والثانى: أنهم رأوا أنه ليس من العدل أن يتمتع غير المختتنين بنفس المزايا مع أولئك الذين عاشوا كل هذا الزمان تحت الناموس، وهذا قد أزعجهم أكثر من الأمر الأول.

وفي هذا السياق يقول القديس إيرينؤس [نحن نتعلّم من الكتاب المقدس، أن الله أعطى الختان، لا كمكمل للبر، بل كعلامة، تجعل نسل إبراهيم يستمر معروفًا. لأنه يقول: "قال الله لإبراهيم، يختن منكم كل ذكر، فتختتنون في لحم غرلتكم. كعلامة عهد بيني وبينكم" (تك١٧: ٩- ١١). وهذا هو نفسه ما يقوله النبي عن السبوت: "وأعطيتهم أيضًا سبوتي لتكون علامة عهد بيني وبينهم، ليعلموا أني الرب مقدسهم"[١٧].

وفي سفر الخروج، يقول الله لموسي "وأنت تكلم نبي إسرائيل قائلاً، سبوتي لأنها علامة عهد بيني وبينهم في أجيالكم". هذه الأشياء، إذًا أعطيت كعلامة، ولكن العلامات لم تكن خالية من الرمزية، أي هي ليست بلا معنى، ولا بدون قصد، مادامت قد أعطيت من فنان حكيم، أما الختان حسب الجسد فيشير إلى الختان بالروح. لأن الرسول يقول: " وبه أيضًا ختنتن ختانًا غير مصنوع بيد"[١٨]. والنبي يقول: "إختتنوا قساوة قلبكم، ولا تصلّبوا رقابكم" (تث١٠: ١٦س). والسبوت تعلّم أننا يجب أن نستمر اليوم كله في خدمة الله". والرسول بولس يقول " من أجلك نمات كل النهار.

---

[١٧] خر٢٠: ١٢.
[١٨] كو٢: ١١.

قد حسبنا مثل غنم للذبح"[19]. أي أننا مكرسون لله، خادمون إيماننا بإستمرار، ومثابرين عليه، ونمتنع عن كل جشع، ولا نقتني أو نمتلك كنوزًا على الأرض[20].

وأيضًا، فإن سبت الله، أي الملكوت، قد أشير إليه، كما لو كان، بأمور مخلوقة، الذي فيه (في الملكوت) فإن الإنسان الذي ثابر في خدمة الله، سوف يشترك في مائدة الله، في حالة راحة.

أما كون الإنسان لم يتبرر بهذه الأمور، بل هي قد أعطيت كعلامة للشعب، فهذه الحقيقة تبين - أن إبراهيم نفسه، بدون ختان وبدون حفظ سبوت، "آمن بالله، فحسب له برًا، ودُعِيَ خليل الله"[21]. ثم لوط أيضًا، بدون ختان، أُخرِجَ من سدوم، حاصلاً علي خلاص من الله. هكذا أيضًا نوح أرضي الله رغم أنه كان غير مختون، وإستلم أبعاد (الفلك)، لعالم الجنس البشري الثاني. وأخنوخ أيضًا أرضي الله بدون ختان، وقام بوظيفة ممثل الله إلي الملائكة، رغم أنه إنسان، ونقل، وحُفِظَ إلي الآن كشهادة لدينونة الله العادلة، لأن الملائكة حينما تعدوا سقطوا إلي الأرض للدينونة، أما الإنسان الذي أرضى الله، فقد نقل للخلاص][22].

وبعدما أوضح ق. يوحنا ذهبي الفم هذا الأمر، تحدّث بعد ذلك عن ما أثار حنق اليهود، لدرجة أنهم أدانوا القديس بطرس، بسبب كرنيليوس وما حدث معه[23]. فماذا يقول؟ "*إذًا نحسب أن الإنسان*

---

[19] رو٨:٣٦.

[20] مت٦:١٩.

[21] يع٢:٢٣.

[22] "ضد الهرطقات"، الجزء الثاني، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدرسات الآبائية، ص١٦٨، ١٦٩.

[23] وذلك عندما قبل كرنيليوس الإيمان، واستدعى القديس بطرس ليشرح له الرؤيا التي رآها، والحوار الذي دار بينه وبين القديس بطرس، انظر أع١٠:١-١١، ١٨.

يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس" لم يقل اليهودى أو ذاك الذي يحيا بوصايا الناموس، لكنه جعل كلمته أكثر اتساعًا، وفتح أمام العالم كله أبواب الخلاص، عندما استخدم تعبير "*الإنسان*" أي ما يخص الطبيعة الإنسانية كلها. ثم إتخذ من ذلك دافعًا ليقضي على الاعتراض الذي لم يُذكَر. بمعنى أنه كان طبيعيًا لليهود الذين سمعوا أن الإيمان يُبرر كل إنسان، أن يحزنوا ويتعثروا، ولذلك أضاف " أم الله لليهود فقط" كما لو أنه يقول، لماذا يبدو لك أن خلاص كل إنسان يُعَد أمرًا غير معقول أو غير ملائم؟ هل الله لبعض الناس دون البعض الآخر؟ مبينًا بهذا أنهم يريدون الإساءة إلى الأمم، ويَحجبون بالأكثر مجد الله، عندما لا يقبلون أن يكون إلهًا للجميع . ولأن الله هو إله الجميع، فهو يعتني بالجميع، وعندما يهتم بالجميع بطريقة واحدة، فإنه يخلّصهم من قِبل إيمانهم.

هكذا يقول: إن الله ليس لبعض الناس فقط، مثل الذي تُصوِّره أساطير اليونانيين، بل إنه واحد للجميع. " لأن الله واحد" أى أن الله بذاته هو لهؤلاء ولأولئك، لكن إن كنت تحدثني عما حدث في الماضى، فإن عناية الله كانت واحدة تجاه الجميع، على الرغم من انها إتخذت طرق متنوعة. لأن الناموس المكتوب قد أُعطيَ، والناموس الطبيعي قد أُعطيَ لأولئك، ولم يكن هؤلاء في وضع أقل (من اليهود) ولو أنهم أرادوا لا ستطاعوا أن يصبحوا في وضع أسمى. هكذا يؤكد الرسول بولس على أن: " لأَنَّ اللهَ وَاحِدٌ، هُوَ الَّذِي سَيُبَرِّرُ الْخِتَانَ بِالإِيمَانِ وَالْغُرْلَةَ بِالإِيمَانِ "[٢٤].

---

[٢٤] رو٣:٣٠.

مُذكرًا هؤلاء بالأمور التي قالها عن الغرلة والختان، كيف أنه لا يوجد أي اختلاف بينهما، فإذا لم يكن هناك إختلاف آنذاك، فبالأولى كثيرًا الآن، الأمر الذي أظهره بكل وضوح، مبينًا أن كل واحد لديه نفس الاحتياج للإيمان.

هو هنا يوضّح كيف أن الناموس لم يعد ساريًا الآن، بل أُلغيَ. ولاحظ مقدار القوة التي للرسول بولس، وكيف أنه يُبرهن على ما يريد قوله بهذا القدر من السهولة. لأنه أظهر أن الإيمان ليس فقط لا يُبطل الناموس، بل يساعده بنفس الطريقة التي بها يمهد الناموس الطريق إلى الإيمان . لأنه كما قال سابقًا إن الناموس يشهد للإيمان، فهو يقول: "مشهودًا له من الناموس والأنبياء"، هكذا فإن الإيمان يُثبّت الناموس. وكيف يثبّته؟ وما هو عمل الناموس؟ ولأي سبب سعى الناموس ليتمم كل شيء؟ كانت غاية الناموس تبرير الإنسان، ولكنه لم يستطع أن يحقق هذا. لأنه يقول "الجميع أخطأوا"، لكن عندما أتى الإيمان، حقق (البر)، لأن الإنسان آمن وتبرر في آن واحد، وحقق الإيمان كل ما كان يسعى إليه الناموس بكافة الطرق. وعليه، فهو لم يُبطله، لكن كمّله . لقد أظهر هنا ثلاثة أمور:

١ـ إنه من الممكن أن يتبرّر المرء بدون الناموس.
٢ـ إن الناموس لم يستطع أن يحقق ذلك البر .
٣ـ الإيمان لا يحارب الناموس.

ونظرًا لأن اليهود قد أشاعوا بأن الإيمان هو ضد الناموس، فقد أظهر أكثر مما أراد اليهود أن يسمعوه، بقوله إن الإيمان ليس ضد الناموس، بل إنه مساعد ومعين له . الأمر الذي اشتهوا أن يسمعوه.

لأنه بعد هذه النعمة التي تبرّرنا بها، فإن الأمر يحتاج لطريقة حياة مناسبة، فلنُظهر سلوكًا يليق بهذه العطية، لتطبيق مثل هذه الطريقة، ولنعتني أن نحفظ المحبة التي هى تاج كل الخيرات، وأن نُظهرها ولو بمحاولات كثيرة. لأن المحبة، لا تعني الكلام فقط، ولا المحاضرات الكثيرة، ولكنها تكمن في مساعدة الآخر، إذ أنها تَظهر في الأعمال، وعلى سبيل المثال يتجلّى عمل المحبة عندما يقلل أحد من حالات الفقر، أو يُعين المرضى، أو يُبعد الأخطار، أو يقف إلى جوار الذين يواجهون مواقف صعبة، أو يبكي مع الباكين، ويفرح مع الفرحين. وعلى الرغم من أن الفرح مع الفرحين يبدو أمرًا بسيطًا، إلاّ أنه يعد عملاً عظيمًا للغاية، ويحتاج إلى فكر حكيم. فمن الممكن أن نرى كثيرين قد حققوا أمورًا صعبة المنال، ولكنهم لا يستطيعون أن يعيشوا المحبة التي تفرح بفرح الآخرين، لأن الكثيرين يبكون مع الباكين. لكنهم لا يفرحون مع الفرحين، إذ نجدهم يذرفون الدموع عندما يفرح الآخرين، وهذا هو الحسد والحقد.

إذًا كون الإنسان يشارك أخاه في فرحه، فهذا ما يُعَد إنجازًا عظيمًا، وهو أكبر ليس فقط من أن يبكى مع الباكين، بل أيضًا من أن يقف إلى جوار أولئك الذين يتعرّضون للمخاطر. لقد خاطر كثيرون مع أولئك الذين تعرضوا للخطر، وعندما ابتهج هؤلاء، تضايقوا هم، هذا هو مرض الحسد، فعلى الرغم من أن الأول (البكاء) ينتج عنه تعب وحزن، بينما الثانى (الفرح) يأتى نتيجة اختيار وقرار فقط، فإن الكثيرين يحتملون ما هو أصعب ويتركوا ما هو أسهل، فنجدهم يئنوا ويحزنوا جدًا عندما يرون الآخرين

يفرحون، وأيضًا عندما يرون أن الكنيسة كلها تنتفع، سواء بالكلمة أو بأى طريقة أخرى. وهل يوجد أسوأ من هذا؟ لأن مثل هذا الإنسان، لا يحارب اخوة فقط، بل يقاوم إرادة الله أيضًا. إذًا يجب عليك عندما تدرك هذا، أن توقف هذا المرض (أى الحسد)، وإن لم تستطع أن تقبل قريبك، فعلى الأقل حاول أن تخلّص نفسك من شرور كثيرة (تنتج عن هذا الحسد).

ولماذا تسمح بالحرب أن تخترق أفكارك؟ لماذا تملأ نفسك بالإنزعاج؟ لماذا تتسبب في الكوارث؟ لماذا تُثير القلق والإرتباك؟ كيف يمكنك أن تطلب غفرانًا للخطايا عندما تصنع كل هذا؟ فإن كان الله لا يغفر لأولئك الذين لا يغفرون خطايا الآخرين، فكم بالحرى أولئك الذين يحاولون أن يظلموا أُناسًا لم يرتكبوا أى ظلم في حقهم. وأى غفرانًا سينالونه؟[٢٥] هذا يُعَد برهانًا على ممارسة أسوأ أنواع الشرور. هؤلاء الظالمون إنضموا إلى الشيطان في محاربة الكنيسة، بل ربما بصورة أسوأ بكثير. لأنه من الممكن أن نحترس من الشيطان، لأننا لا نجهل حيله، لكن هؤلاء الأشرار وهم يرتدون قناع المحبة، فإنهم يشعلون النار خفيةً. إن هذا الأمر لا يمكن أبدًا أن يدعو للشفقة، بل هو مثار للسخرية أيضًا. ولماذا يقفهر وجهك وترتعش وتقف مرتعبًا؟ وما هو الشر الذي حدث؟ هل لأن أخاك قد صار مشهورًا، ممجدًا وناجحًا؟ إن هذا يدعوك أن تتهلل وتفرح وتمجد الله، فإن أحد أعضائك صار مشهورًا ومُمجدًا، إلاّ أنك في الحقيقة تتألم بسبب أن الله قد تمجّد في أبنائه.

---

[٢٥] ولذلك نحن نصلي في الصلاة الربانية، ونقول " اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا".

إعلان مجد الله

أرأيت إلى أين تقود هذه الحرب؟ وإن كان أي يهودي يدّعي بأنه لا يتألم لأن الله يتمجّد، لكنه يتألم حين يرى أن الأخ قد تمجَّد. إن مجد الله يُستعلن من خلال مجد الأخ، وبناءًا عليه. فأنت الذي تقود هذه الحرب. ومع هذا تقول إن هذا الأمر لا يضايقني، وما أريده فقط هو أن يتمجد الله من خلالك. كان ينبغي عليك أن تفرح عندما يفرح أخاك، تمامًا كما تفرح عندما يتمجد الله من خلالك، عندئذ سيقول الجميع مبارك الله الذي لديه مثل هؤلاء الخدام المتحررين من كل حسد، والفرحين بكل الأمور الحسنة التي تسود فيما بينهم. ولماذا أتكلّم عن الأخ؟ لأنه لو كان الذي تمجّد الله من خلاله، خصمًا وعدوًا، فينبغي عليك لأجل هذا السبب أن تجعله صديقًا لك، ولكنك تجعل الصديق عدوًا، لأن الله قد تمجَّد بتقدمه ونجاحه . فلو أن شخصًا ما قد ساهم في شفاء جسدك المتألم، فسوف تعتبره فيما بعد من أصدقائك المقرّبين، حتى ولو كان عدوًا، بينما ذاك الذي يُزين جسد المسيح، أى الكنيسة، وهو صديق لك، فأنت تعتبره عدوًا. وهل توجد طريقة أخرى أسوأ من ذلك، تُحارب بها المسيح؟ ولهذا فحتى لو صنع المرء معجزات، أو سلك طريق البتولية أو مارس الصوم أو النوم على الأرض، ووصل بفضيلته إلى مستوى الملائكة، لكنه يحمل هذا العيب (أى الحسد)، سيعتبره الجميع مريضًا، وأشرّ جدًا من الزاني، والعاهر، والسارق، ونابش القبور.

ثم يقول ق. يوحنا ذهبي الفم، ولكي لا يتهمني أحد بالمبالغة في القول، فسوف أسألكم، لو أن شخصًا ما أخذ نارًا وأدوات هدم،

وقام بهدم وحرق هذه الكنيسة ودمر هذا المذبح، ألا يرميه كل أحد من الموجودين هنا بحجر، كدنس ومُدان؟ ماذا إذًا، لو أحضر شخص، هذا اللهب المشتعل جدًا، أي الحسد، والذي لا يهدم فقط مبنى مشيدًا بالحجارة، ويُدمر مذبحًا من الذهب، بل يهدم ما هو أثمن وأقيم بكثير من الحوائط ومن المذبح، يدمر البناء الروحى الذي أقامه المعلّمين، فأى غفرانًا يمكن أن يناله؟ ولا يقل لى أحد، إنه حاول مرات كثيرة أن يتخلّص من هذا الداء (أى الحسد) ولم ينجح، لأن كل الأمور يُحكم عليها من جهة الإرادة. لأن شاول أُعتبر أنه قتل داود، على الرغم من أنه لم يتمكن من ذلك.

ثم يقول: وهل لا تعلم أنك تتآمر على خراف المسيح، تحارب الراعى والخراف التي بذل المسيح دمه من أجلها، وأوصانا أن نجوز الآلام وأن نعمل بكل اجتهاد من أجلها؟ ألا تتذكر أن سيدك طلب من الآب مجدًا لك، بينما أنت لا تطلب مجد الرب، بل مجدك الذاتي، على الرغم من أنه لو طلبت مجد الرب، فستنال عندئذٍ مجدك الشخصي. أمَّا إن طلبت المجد الذاتي قبل مجد الرب، فلن تتمتع أبدًا بهذا المجد. فما هو طريق الشفاء إذًا؟ نصلي معًا ونرفع جميعًا صوتًا واحدًا من أجل هؤلاء كما لو كانوا مرضى، لأنه هؤلاء بالحقيقة قد سلكوا بشكل أكثر سوءًا من الذين سلكوا بشهوة جامحة. لأن هذا المرض (الحسد) يحتاج صلوات وتضرعات كثيرة، فالذي لا يُحب أخاه، لن يحقق أي شيء، حتى لو أنفق أموالا كثيرة، وحتى لو أُفرز للشهادة. تأمل حجم العقوبة التي يمكن أن ينالها الذي يُحارب أخاه، دون أن يكون ذاك قد ظلمه أبدًا، إنه يُعَد أسوأ من الوثنيين.

فلو أننا نحب أولئك الذين يحبوننا، فلن نتميّز عنهم بشيء. أخبرني أين سيقف ذاك الذي يحسد أولئك الذين يحبونه، عندما يَمثُل أمام الله يوم الدينونة العتيدة؟ لأن الحسد يُعتبر حقًا أشر من الحرب، لأن العداوة بين المتحاربين تزول بزوال أسباب الحروب، بينما الحاسد لا يمكن أن يصير صديقًا لآخر. والأول (أى المحارب) يُعلن عن معركته بينما الثانى (أى الحاسد) يُخفيها، الأول يستطيع أن يذكر في مرات كثيرة مبررات شن الحروب، بينما الثانى لا دوافع لديه سوى الحماقة والرغبة الشيطانية. إذًا بأى شيء يستطيع المرء أن يقارن هذه النفس؟ بأى شيء فاسد؟ بأي وسيلة دفاع؟ بأي حشرة؟ بأي دويبة؟ لأنه لا يوجد شيئًا يُثير الإشمئزاز أكثر من هذه النفس. لأن مرض الحسد يقود بالحقيقة إلى فوضى في الكنائس، وقد ولَّد الخطايا، ووضع سلاحًا في يد الأخ، وجعل اليد اليمنى ترتوى بدم البار، دمر نواميس الطبيعة، فتح أبواب الموت، وقد تسبب في اللعنة[26]، ولم يترك قايين البائس أن يتذكر آلام الوضع. ولا حالة الوالدين وحزنهم على فراق ابنهما، ولا أى شيء آخر، لكن هذه اللعنة جعلته مشتَّتًا، وقادته إلى هذا الجنون، وبرغم من تحذير الله، الذي سبق فقال له "*فَعِنْدَ الْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ، وَإِلَيْكَ اشْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيْهَا*"[27]، إلا أنه لم يتراجع. فالشفاء من هذا المرض (أى الحسد)، يُعَد أمرًا صعبًا، حتى ولو أُعطيَ المريض أدوية كثيرة، الحسد يُفجر الفساد (أي فساد الحاسد).

ولماذا تتألم وتقود نفسك إختياريًا لأن تُصبح أكثر بؤسًا من

---

[26] عندما قال الله لقايين " ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك" (تك ٤: ١١).

[27] تك ٤: ٧.

الجميع؟ هل لأن الله تمجّد؟ إن هذا الأمر يكشف عن سيادة الشيطان على النفس. هل لأن أخاك صار أفضل منك؟ إنك تستطيع أيضًا أن تتفوق عليه وتصير أفضل . وبناء على ذلك، فلو أردت أن تفوز ينبغي ألا تذبح وألا تقتل، بل يجب أن تتركه ليحيا، لكي يبقى لديك دافعًا للجهاد، وتنتصر الحياة، لأنه بذلك سيكون تاجك منيرًا. لكنك بهذا الفعل تكون قد هُزمت شر هزيمة، بل وأعلنت قرارك بالهزيمة. لكن لأى سبب تحب المجد بهذا القدر مع أنك ستبقى وحيدًا؟ إن قايين وهابيل هما فقط اللذان كانا يعيشان في هذه الأرض. لكن ولا هذا أيضًا قد جعل قايين يضبط مشاعره، بل أفرغ نفسه من كل صلاح، وأخذ موقفًا وقتل أخاه بتحريض من الشيطان، لأن الشيطان كان بالفعل هو القائد آنذاك، إذ لم يكن كافيًا للشيطان أن الإنسان قد صار فانيًا، لكنه حاول أيضًا أن يجعل الكارثة أكبر، عن طريق القتل، فأقنع قايين بأن يقتل أخاه . لأن ذاك الذي لا يشبع مطلقًا من ممارستنا للشرور، قد تَعجّل وكان مُتلهفًا أن يرى قرار القتل وقد تحقق، تمامًا مثل شخص، رأى عدوه محبوسًا، وأن حكمًا بالاعدام قد صدر ضده، فيكون متعجلاً لرؤية تنفيذ حكم الاعدام داخل المدينة قبل أن يخرج منها، ولا ينتظر الوقت المحدد لتنفيذ الحكم، هكذا صنع الشيطان آنذاك، فعلى الرغم من أنه قد سمع أن الإنسان سيعود إلى الأرض[٢٨] إلاّ أنه كان مُتلهفًا لرؤية المزيد، أن يموت الابن قبل الأب، والأخ يقتل أخاه، وبأسلوب بشع وعنيف.

---

[٢٨] عندما قال الله لآدم " ملعونة الأرض بسببك.. بعرق وجهك تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها " (تك٣:١٧، ١٩).

أرايت كمَّ الخدمات التي يُقدمها الحاسد للشيطان؟ وكيف أنه أشبع رغباته التي لا تَشبع، إذ قدّم له مائدة غنية على قدر ما يشتهي، ليتنا نتجنب هذا المرض. لأنه بالحقيقة من غير الممكن أن نتجنب تلك النار التي أُعدت للشيطان وأعوانه، إن لم نتخلّص من هذا المرض (أي الحسد)، لكننا سوف نتخلّص منه لو أدركنا أن المسيح قد أحبنا وأعطانا وصية أن نُحب بعضنا بعضًا. وكيف أحبنا؟ لقد أحبنا حين سفك دمه الكريم لأجلنا، على الرغم من أننا كنا أعداءًا، وصنعنا شرورًا كثيرة.

فلتصنع أنت نفس الأمر تجاه أخاك، لأن المسيح أمرنا قائلاً: " *وَصِيَّةً جَدِيدَةً أَنَا أُعْطِيكُمْ: أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا. كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ*"[٢٩]. أو من الأفضل أن نقول إن الأمر يتجاوز مجرد محبتنا بعضنا لبعض، لأن المسيح فعل هذا لأجل أعدائه. ومع هذا فأنت لا تريد أن تبذل نفسك لأجل أخاك. لكن لماذا إذًا تسفك دمه مخالف الوصية؟ فما صنعه المسيح، لم يصنعه كدين عليه. لكن أنت عندما تفعل ذلك، فأنت تُسدد دينك. لأن ذاك أيضًا الذي أخذ عشرة آلاف وزنة، وطالب بالمائة دينار من العبد المديون، لم يُدن فقط من أجل هذا، أي لأنه طالب بما له، ولكن لأنه لم يصر أفضل، لا بفعل الاحسان، ولا أنه صنع كما صنع سيده معه في البداية، ولا أعاد الدين. لأن هذا الدين مُلقى على عاتق العبد وعليه أن يسدده[٣٠]. إن كل ما نفعله، نفعله لكى نُسدد دينًا. ولأجل هذا قال المسيح: " *مَتَى فَعَلْتُمْ كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَقُولُوا: إِنَّنَا عَبِيدٌ*

---

[٢٩] يو١٣: ٣٤.

[٣٠] انظر مت١٨: ٢٣-٣٥.

بطَّالُونَ، لأَنَّنَا إِنَّمَا عَمِلْنَا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا"[31]، حتى عندما نُظهر محبة، أو نُعطى أموالاً للمحتاجين، فإننا في الحقيقة نسدد دينًا، ليس فقط لأن ذاك قد بدأ بالإحسان، لكن لأننا نُعطي مما له، هذا لو حدث مرةً وأعطينا.

لماذا إذًا تحرم نفسك من تلك الأمور التي يريد بها الله أن يجعلك سيدًا؟ طالما أنه لأجل هذا أوصاك أن تقدّم محبة للآخر، لكى تحصل عليها أنت أيضًا. لأن كل ما تقتنيه لنفسك فقط، لن تتملكه، ولكنه سيكون لك عندما تُعطي للآخر. تُرى، هل هناك ما هو مساويًا أو مشابهًا لهذه المحبة؟ إن المسيح سفك دمه لأجل الأعداء، بينما نحن لا نُعطى أموالاً حتى لأجل خيرنا. ذاك سفك دمه بينما نحن لا نُعطي ولا حتى الأموال التي ليست لنا. ذاك أعطى أولاً، لكننا لم نقدّم أي شيء بعد ذلك. وبرغم أن ذاك قدّم نفسه لأجل خلاصنا، إلاّ أننا لم نفعل أي شيء، حتى وإن كان لأجل منفعتنا. فما قدّمناه لا يتعدى مجرد أعمال الرحمة الإنسانية، رغم أن كل الأشياء ستؤول في النهاية لنا . ولهذا فقد أُعطانا وصية المحبة، حتى تكون لنا هذه المحبة.

تمامًا كما لو أن شخصًا أعطى مالاً لطفل صغير وأمره أن يمسك به جيدًا، أو أعطاه لخادم لكى يحفظه، حتى لا يستطيع مَن يطمع فيه أن يخطفه، هذا بالضبط ما صنعه الله. وأنت أيضًا إعطى لمَن له إحتياج، لكي لا يأتي آخر ويسلبه منك، مثل السارق أو الشيطان . إن الموت سيخطفه في نهاية الأمر، لذلك حتى وإن احتفظت بهذه الأموال، فلن تحتفظ بها في أمان. ولكنك إذا

---

[31] لو١٧ :١٠.

قدمتها إلى الله، من خلال عطائك للفقراء، فإنه سوف يحفظها لك في أمان، وسوف يردها لك وبوفرة وفي الوقت المناسب، لأن الله لا يأخذها لكي ينزعها منك، بل لكي يزيدها، ولكي يحفظها في أمان أكثر، لكي يحفظها لذلك الزمان الذي يختفي فيه مَن يُقرض أو مَن يقدم عمل رحمة للآخرين.

وهل تعتقد بعد كل هذه الوعود، أن هناك مَن هم أكثر قسوة منَّا، عندما نرفض أن نُعطي لله أو أن نقرضه؟ ما ينبغي إدراكه. أننا سوف نذهب إلى الله مجردين من كل شيء، بل وفقراء دون أن نحتفظ بشيء مما قد استأمنا هو عليه، لأننا لم نودعه عند ذاك الذي يستطيع أن يحفظه بأمانة أكثر من الجميع. ولهذا فإننا سنُعَاقَب أشد عقاب. ماذا نستطيع أن نقول إذًا عندما سُندان بسبب تقصيرنا في العطاء. وأى تبرير سنُقدم؟ ولأى سبب لم نُعطِ؟ ألا تثق بأنك سوف تأخذ ما قدّمته مرةً أخرى؟ وكيف يمكن أن يكون لهذا مُبرر؟ لأن الله أعطى بسخاء لذاك الذي لم يعطِ شيئًا، فكيف لا يعطي الإنسان أكثر بكثير بعدما أخذ مجانًا؟ وهل الأخذ دون عطاء يسبب لك فرحًا؟ لأجل هذا ينبغي عليك أن تعطي بوفرة، فإن هذه العطايا ستجعلك تفرح أكثر في الحياة الأخرى، هناك حيث لا يستطيع أحد أن ينزعها منك، ولكن إن احتفظت بها لنفسك الآن، فإنك ستعاني شرورًا كثيرة. ومثلما يفعل الكلب الذي يريد أن يخطف قطعة خبز من يد طفل وهو ممسك بها، هكذا يفعل الشيطان في هجومه على الأغنياء.

فلنعطي هذه الأموال لله، وعندما يرى الشيطان هذا العطاء، فإنه سينسحب بكل تأكيد، وعندما ينسحب. فإن الله وقتها

سيعطيك كل ما قدّمت. وسيُعوضك في حياة الدهر الآتى عن هذا العطاء أضعافًا، حيث لا يستطيع الشيطان أن يُسبب أى إزعاج. فالأغنياء الآن لا يختلفون على الإطلاق عن الأطفال الذين ينزعجون من بعض الكلاب عندما تعوى جميعها حولهم، والشياطين أيضًا تحاول أن تفترس البشر بإستعبادهم للشهوة، وبالنهم، وبالسكر، وبالنفاق، وبالفجور. وعندما تكون هناك حاجة لكي نُقرض، فإننا ندقق في أولئك الذين أعطوا كثيرًا، ونفحص جيدًا فاعلى الإحسان (حتى نرى حجم العطاء)، نحن هنا نصنع بعكس ما يفعله الله، فالله الذي يُحسن بفيض، والذي يعطى ليس فقط مائة، لكن مائة ضعف، نتركه، ونسعى نحو أولئك الذين لن يردوا حتى أصل المال.

ودعني أتساءل: ماذا يَفضُل عنَّا بعد الأكل بشراهة؟ فضلات ورائحة نتنة. أو دعني أقول ما هو المجد الباطل؟ بغضة وفساد. وماذا عن البخل؟ إهتمام زائد بالمال ومحبة كبيرة له. وماذا عن الفجور؟ جهنم وحشرات ضارة، لأن المديونيين للأغنياء هم الذين يدفعون الفوائد التي لأصل المال، أى الشرور الحاضرة، والكوارث المنتظرة (التي سيجنيها الأغنياء). وهل ستُقرض هؤلاء وتُربح كل هذه العقوبات ولا تعطى بثقة كل هذه للمسيح (أي للفقراء والمحتاجين) الذي يَعِد بملكوت السموات وبالحياة الأبدية وبالخيرات التي لا تُوصف؟ وإذا لم نُقدم لمَن هم في إحتياج فأي تبرير سنُعطي؟ ولأي سبب لا نعطي كل ما نملك للمسيح الذي سيعطيك حتمًا، وسيعطيك بوفرة؟ هل لأنه يعطي بعد زمن طويل أي في الدهر الآتي، على الرغم من أنه من المؤكد، أنه يعطينا خيرات أيضًا في

هذه الحياة، فالذي قال: " *لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزاد لكم*"[٣٢]، لا يكذب. هل رأيتم محبة أكثر من هذه؟ إذ أن الأمور المختصة بملكوت الله، محفوظة لك ولن تنقص، أما الأمور الأرضية، فهو يعطيها لك على كل حال وبوفرة.

وفوق كل هذا، فإنك ستربح بعد حين، غنى أوفر، لأن الربح وقتها سيصير أعظم. هذا ما يفعله المقرضون تجاه المقترضين، طالما أنهم يُقرضون برغبة قوية لأولئك الذين يسدّدون بعد زمن طويل، لأن ذاك الذي يرد الدين يُعتق على الفور من دفع الفوائد، لكن ذاك الذي يحتفظ بالمبلغ لزمن أطول، فإنه يعمل به لفترة أكبر (ويقدم عنه فائدة أكثر)، علينا ألاّ نحزن إذا تأجل دفع الدين، بل ويجب أن نبرره حتى لو طالت فترة التأجيل. أما بالنسبة لله، فيجب أن لا نسلك بصغر نفس ونتردد فنُصاب بالحيرة والخوف بالرغم من أنه ـ كما سبق وأشرنا ـ يُقدم عطايا وفيرة في هذه الحياة، وأيضًا يدّخر لك شيئًا أكبر وأعظم في الحياة الأخرى، لأن مقدار وجمال العطايا التي يهبها الله في حياة الدهر الآتى، يفوق تفاهة الحياة الحاضرة. وبكل تأكيد أننا لا نستطيع أن نقبل تلك الأكاليل الخالدة في هذا الجسد الفانى، وأيضًا لا يمكننا أن نتمتع بهذا الميراث الثابت غير المتغيّر في هذه الحياة الحاضرة المليئة بالقلاقل والاضطرابات، والتي تسودها تغييرات كثيرة.

وعليك أن تفكر لو أن شخصًا ما كان مدينًا لك بأموال، وأنت متغرب في بلد أجنبي، وتعهّد برد هذا الدين. ولم يكن لديك خدَم ولا تستطيع أن تحمل هذه الأموال إلى بيتك. فإنك ستترجاه

---

[٣٢] مت٦:٣٣.

بإلحاح ألاّ يدفعها لك في بلد غريب، بل تُفضّل أن يسدّدها لك في وطنك، ومع أنك تفعل هذا في أموالك، إلاّ أنك فيما يختص بالأمور الروحية والخيرات الغير الظاهرة، تطلب أن تأخذها هنا في هذه الحياة الحاضرة. هل يوجد دليل على الحماقة أكثر من هذا؟ لأنك إذا حصلت عليها هنا في هذه الحياة، فستأخذها بكل تأكيد، ولكنها ستنتهي، أما إذا انتظرت حياة الدهر الآتي فسيعوضك الله بالخيرات التي لا تفنى. لو أخذت هنا فإنك تأخذ معدنًا ثقيلاً لا ثمن له، أما هناك، فإنك تأخذ ذهبًا نقيًا. ومع هذا لن يحرمك الله من الأمور الأرضية ـ لأنه مع الوعد بملكوت الله ـ أضاف أمرًا آخر، قائلاً إن مَن يشتهي ملكوت الله وبره، سيأخذ مائة ضعف في هذه الحياة، وسيرث الحياة الأبدية.

ولكن لو أننا لم نأخذ مائة ضعف في هذه الحياة، فالسبب يرجع لنا، لأننا لم نُعطِ لله الذي يستطيع أن يُعطينا بغنى. لأن أولئك الذين أعطوا، قد أخذوا الكثير، على الرغم من أنهم أعطوا القليل. أخبرني ما هو الشيء العظيم والثمين الذي أعطاه القديس بطرس، ألم يعطي شبكة ممزقة، وسنارة، وحربة؟ لكن الله فتح أمامه كل بيوت المسكونة، وجال الأرض والبحر، ودعاه الجميع في بيوتهم. والشيء الرائع أنهم باعوا ممتلكاتهم وأحضروها تحت أقدامه، دون أن يضعوها في يده (لأنهم لم يجرؤا على هذا)، ناسبين إليه السخاء والكرم . وقد يقول قائل إن ذاك كان بطرس. لكن هل هذا يعني شيئًا بالنسبة لك؟ إن الله لم يَعِد بطرس فقط بملكوت الله، ولم يقل أنت يا بطرس ستأخذ مائة ضعف، بل قال " *وَكُلُّ مَنْ تَرَكَ بُيُوتًا أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ.. يَأْخُذُ مِئَة*

ضعْفٍ"[٣٣] لأنه لا يحابي الوجوه، بل إن وعوده هي للجميع.

ربما يقول قائل إن لديه أولادًا كثيرين، ويتمنى أن يتركهم أغنياء. فلتقل له ولماذا تريد أن تجعلهم فقراءًا (أي بهذا السلوك الخالي من المحبة)؟ إذا تركت لهم كل شيء، فإنك تُعطي كل مالك وأنت ترجو لهم الآمان، لكنه أمان غير مؤكد. أما عندما تنجح في أن تجعل اللّه وريثًا معهم، ووصيًّا عليهم، تكون قد تركت لهم كنوزًا لا حد لها. مثلما يحدث عندما يريد أحد أن ينال منَّا، فإذا ما دافعنا عن أنفسنا، فإن اللّه لا يُعيننا، ولكن عندما نترك الأمر كله للّه، فستصير النهاية أفضل مما نتوقع. وهذا ما يحدث بالنسبة للمال، لو أننا اهتممنا به، فإنه سينسحب ولن يعتني بنا، أما إذا وضعنا كل شيء تحت عناية اللّه، فهذا المال، والأولاد أيضًا سيحفظهم هو في أمان كامل. ولماذا تندهش لو أن هذا يحدث في حالة تعاملنا مع اللّه؟ فبالنسبة للبشر يستطيع المرء أن يرى مثل هذا الأمر. لأنه إن لم تترجى أحد أقربائك في أيام حياتك الأخيرة، لكي يعتني بأولادك، فلن يقوم بهذا العمل من تلقاء نفسه، بل يخجل ويتردد كثيرًا في تعهد هذا الأمر، ولكنك إذا وضعت رجاءك في اللّه لكي يتعهدهم بالرعاية، باعتبار أنك تُكرّمه بأعظم ما تكون الكرامة، فإنه سيعوّضك بأعظم مجازاة.

فإذا أردت أن تترك غنى وافرًا لأولادك، اتركهم للعناية الإلهية. فاللّه قد خلق النفس والجسد ومنح الحياة، دون أن تُقَدِم أنت أي شيء. لذلك عندما يرى أنك تظهر نُبلاً، وتُسلّم له كل ما يتعلق بالأولاد، بل تُسلّم الأولاد أنفسهم، فكيف لا يغدق عليهم بكل

---

[٣٣] مت١٩:٢٩.

الغنى؟ فإيليا قد أكل "الخضيرة" التي أعدتها له المرأة بقليل من الدقيق، وعندما رأى الله أنها فضّلته على إبنها، فإنه ملأ غرفة الأرملة بأجران دقيق وبراميل زيت[٣٤]، وعندما تتأمل في مقدار اللطف الذي أظهره إله إيليا، فإنه لا ينبغي أن نهتم بحجم الغنى الذي نتركه لأبنائنا، بل نعتنى بالأحرى أن نترك لهم الفضائل. لأنه لو وضع الأولاد ثقتهم في الغنى والمال، فلن يعتنوا بأي شيء آخر، وسيحاولون أن يحجبوا صفاتهم السيئة بواسطة أموالهم الكثيرة. ولكن إذا رأوا أن عزاءهم لا يتحقق بواسطة الغنى، فسيفعلون كل شيء، حتى أنهم سينالون عزاءً بالفضيلة، وحتى في حالة الفقر والاحتياج.

إذًا اهتم بأن تترك لهم الفضيلة على أن تترك لهم الأموال، لأنه بالحقيقة هو دليل على الغباء الشديد، عندما نحرم الأبناء السيادة على كل ما لنا أثناء حياتنا، بينما عندما نموت، نمنحهم حرية أوسع على الرغم من أنه عندما نكون أحياءًا، ستكون لدينا الفرصة أن نحمّلهم بمسئوليات، وأن نُهذّبهم ونضبطهم عندما يسيئون إستخدام الأمور المادية. لكن عندما نموت فإن غيابنا، بالإضافة إلى إندفاع الشباب، يُعطى الفرصة للتسلط الذي يأتي من المال، وبهذا ندفعهم إلى الحزن والشقاء وإلى انحدار شديد، بل ونضع نارًا فوق نار، ونلقي بزيت فوق سعير النار المخيف. وبناء عليه، فإذا أردت أن تترك لهم غنى وأمنًا حقيقيًا، اتركهم في عناية الله التي تنفعهم، وسلّم إلى الله كل ما لهؤلاء الأبناء، لأنهم لو أخذوا هذه الأموال، فلن يُميّزوا إلى مَن سيعطونها، وسيقعون ضحية

---

[٣٤] ١مل١٧: ١٦.٧.

لكثيرين من الفاسدين والجاحدين. لكن إذا سبق وأقرضت هذه الأموال لله، فسيبقى الكنز مُحصّنًا فيما بعد، وسوف تسترده مرة أخرى بصورة سهلة جدًا. لأن الله يُسّر للغاية، عندما يمنحنا أكثر مما قدمنا، وينظر إلى قارضيه بفرح كبير، أكثر من أولئك الذين لم يقرضوه، وينظر إلى دائنيه نظرة محبة وتقدير.

وبناء عليه، فإذا أردت أن يكون الله رفيقًا لك على الدوام، ينبغي أن تجعله مدينًا بالكثير. رغم أن المقرض لا يفرح هكذا عندما يكون لديه مدينين، كما يفرح المسيح عندما يكون لديه مُقرضين، وهؤلاء الذين لا يدين لهم بشيء، يتجنبهم، بينما أولئك الذين يدين لهم، فإنه يركض نحوهم بشكل خاص. فلنفعل كل شيء لكي نجعله مدينًا لنا. لأن هذا الوقت هو وقت للإقراض. والآن هو في حالة احتياج (وهو يقصد هنا كل من له إحتياج). ولو لم تعطه الآن، فلن يحتاج لك بعد موتك. لأنه هنا هو عطشان، هو جوعان، وهو عطشان لأجل خلاصك. ولهذا صار طالبًا للصدقة، وصار يتجول عريانًا، وهو يُعِد لك حياة أبدية. لا ينبغي إذًا أن تزدري به، لأنه لا يريد أن يُميت، بل أن يقوت، لا يريد أن يلبس، لكن أن يُلبس الآخرين ويصنع لك ذلك الزي الذهبي، والرداء الملوكي.

ثم يُضيف ق. ذهبي الفم، قائلاً: ألا ترى الأطباء المجتهدين هم أنفسهم يغتسلون عندما يصنعون حمامًا للمرضى، وإن كانوا ليسوا في حاجة لهذا؟ هكذا يصنع المسيح، يفعل كل شيء من أجلك أنت أيها المريض . لذلك فلكي يعطيك المجازاه، لا يطلبك بالإجبار، لكي تعلم أنه يبحث عنك، لا لأنه في احتياج لك، بل لكي يُسدد احتياجك أنت. يأتي إليك باسطًا يده اليمنى بتواضع شديد . وحتى لو أعطيته فلسًا واحدًا ، فلن يردك، وحتى لو ازدريت

به، فلن يبتعد عنك. لكنه سيقترب منك مرة أخرى . لأنه يشتهي خلاصنا جدًا.

إذًا فلنحتقر المال، لكي لا يتركنا المسيح، لنحتقر المال، لكي نفوز بهذا المال. لأننا لو تمسكنا بهذا المال هنا في هذه الحياة، فسوف نخسره في هذه الحياة، وفي الدهر الآتى أيضًا. ولكننا إن وزعناه بكل سخاء وكرم، فسنتمتع بغنى وفير في هذه الحياة وفي حياة الدهر الآتى.

فذاك الذي يريد أن يصير غنيًا، فليصر فقيرًا، لكى يصير غنيًا، لينفق (على الفقراء)، لكي يجمع (هبات وعطايا من الله)، ليهب الآخرين، لكي يحصل (على غنى سمائي). لكن لو أن هذه الأمور تُعَد جديدة وغريبة عليك، فلتلاحظ الفلاح الذي يزرع، وفكّر أن هذا الفلاح لن يجمع (حصادًا) بطريقة اخرى، إن لم ينثر ما لديه، وإن لم يُلقي البذور الجاهزة في الأرض . لنبذر نحن أيضًا، ونزرع للسماء، لكى نحصد بوفرة ونحصل على الخيرات الأبدية.

إفتخار الإيمان

لقد أوضح الرسول بولس بأن بر الله، مُعلن في المسيح يسوع، فذاك الذي يخلص هكذا، يخلص لأنه تبرر بالإيمان وبشكل علني. ولم يكتفِ بالإشارة إلى تعبير البر فقط، لكنه ذكر أن هذا البر معلن. والله أعلنه للممجّدين وللمتبررين وللعظماء. لكنه قد برهن على أن هذا البر هو للأحباء أيضًا، مكملاً حديثه بالتساؤلات، الأمر الذي تعوّد أن يفعله، وهذا يظهر في وضوح وجرأة كلامه. هذا ما قاله في موضع أخر: " *إذًا مَا هُوَ فَضْلُ*

الْيَهُودِيِّ؟"[٣٥]، وأيضًا " *فَمَاذَا إِذًا؟ أَنَحْنُ أَفْضَلُ؟*"[٣٦]، وقوله " فَأَيْنَ الافْتِخَارُ؟ قَدِ انْتَفَى؟"[٣٧]. وهنا يقول " *فماذا نقول إن أبانا إبراهيم..*"؟ والحقيقة أن اليهود كانوا يُصوّبوا تفكيرهم في إتجاه خاص، وهو أن إبراهيم، أب الآباء، قد اختتن أولاً، ولذلك فقد أراد الرسول بولس أن يُبرهن لهم أن إبراهيم قد تبرر بالإيمان وليس بالأعمال، وهذا يعد انتصارًا عظيمًا. وليس هذا فقط بل ويفتخر بهذا، لأنه أمرًا غير طبيعى بالنسبة لليهودي، أن يتبرر بالإيمان، وهذا ما يستحق الإعجاب، الأمر الذي يُظهِر قوة الإيمان بشكل خاص. ولهذا فقد تكلّم عن بر الإيمان، متجنبًا الحديث في أي أمور أخرى. ودعى إبراهيم أبًا حسب الجسد، لكى يحرم اليهود من القرابة الحقيقية له، ولكي يُمهِّد للأمم طريق القرابة له . ولذلك قال: " لأَنَّهُ إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ قَدْ تَبَرَّرَ بِالأَعْمَالِ فَلَهُ فَخْرٌ، وَلكِنْ لَيْسَ لَدَى اللّهِ"[٣٨].

إذًا بعدما قال إن الله يُبرر اليهودي والأممي بالإيمان، وبعد أن برهن على هذه الأمور بشكل مُقنع، فإنه يُظهِر نفس الأمر، ولكن بدرجة أكبر مما وُعد به، فقد جاهد إبراهيم بالإيمان مقابل الأعمال، وناضل من أجل البر. ولهذا فقد امتدحه الرسول بولس جدًا داعيًا إياه " أبانا "، ويدعو هؤلاء اليهود إلى الإقتداء به في كل شيء . ولذلك لا تحدثني عن اليهودي، ولا تذكر لى هذا أو ذاك، لأنني سأتجاوز كل شيء وأعود إلى حيث بدأ الختان. " *لأنه إن كان إبراهيم قد تبرر بالأعمال فله فخر ولكن ليس لدى*

---

[٣٥] رو٣: ١.

[٣٦] رو٣: ٩.

[٣٧] رو٣: ٢٧.

[٣٨] رو٤: ٢.

الله". هذا الكلام غير واضح، وبناء عليه، فهناك إحتياج لأن أشرحه أكثر. لأن هناك افتخاران: واحد بالأعمال والآخر بالإيمان. مادام قد قال: " *إن كان قد تبرر بالأعمال فله فخر. لكن ليس لدى الله*"، وهكذا فإنه يوضح أن هناك افتخار يأتى من الإيمان، وأن هذا الافتخار أفضل بكثير من الافتخار بالأعمال.

لقد ظهرت قدرة الرسول بولس العظيمة في هذا الأمر على وجه الخصوص، إذ حوَّل الأمر كله في اتجاه يخالف المألوف. وإن كان للخلاص عن طريق الأعمال مَن افتخار وجرأة، فقد أوضح كيف أن هذا يتعلق بالأكثر بالإيمان. لأن ذاك الذي يفتخر بالأعمال يمكن أن يُشير إلى أتعابه، وأما ذاك الذي يفتخر بإيمانه بالله، فيكون لديه دافعًا قويًا للافتخار، لأنه ينسب المجد لله . فتلك الأمور (الخاصة ببر الإيمان) والتي لم تظهرها له طبيعة الأشياء المرئية، هذه الأمور طالما قد قبلها من خلال إيمانه بقدرة الله، فإنه يكون قد أظهر محبة حقيقية لله، وأعلن عن قوته بصورة مضيئة.

هذا الإيمان هو سمة لنفس تتصف بالشجاعة، ونية تتسم بالحكمة، وفكر ناضج. لأن الامتناع عن السرقة أو القتل يمكن أن يحققه الناس العاديون، أما الإيمان بأن الله قادر على كل شيء، فإن هذا يحتاج إلى نفس تقية وإلى تكريس هذه النفس بالكامل لله. لأن هذا يُعَد دليلاً على المحبة الحقيقية. والمؤكد أن الله يُكرّم ذاك الذي يحفظ وصاياه، بيد أنه يُكرّم بالأكثر ذاك الذي بالإيمان يسلك بحكمة ووقار. لأن الأول يخضع لله، أما الآخر فهو الذي يكتسب الرؤية الصحيحة التي ينبغي أن تكون عن الله، وينسب المجد لله من أجل أعماله العظيمة. إذًا فالافتخار

بالأعمال يخص ذاك الذي يُنجز عملاً، أما الافتخار بالإيمان فيعني تمجيد الله، وأن يُنسب إليه كل شيء. لأننا نفتخر بكل ما من شأنه أن يُعلن عن عظمة الله ومجده.

ولهذا فإن الذي يفتخر بالإيمان يكون لديه سببًا للافتخار أمام الله، وليس هذا فقط، بل هناك سببًا آخر يجعله يفتخر، فالمؤمن يفتخر أيضًا ليس فقط لأنه أحب الله بالحقيقة، بل لأنه نال منه كرامة ومحبة كبيرة . فكما أنه أحب الله وفكّر من جهته في أمور عظيمة (وهذا دليل محبة)، هكذا فإن الله قد أحبه، على الرغم من مسئوليته عن تلك الخطايا العديدة التي ارتكبها، والله لم يخلّصه من العقاب فقط، بل برّره أيضًا. إذًا فلديه سبب لأن يفتخر، لأنه صار مستحقًا لمحبة الله الغنية. " لأَنَّهُ مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ؟ «فَآمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِاللهِ فَحُسِبَ لَهُ بِرًّا». أَمَّا الَّذِي يَعْمَلُ فَلا تُحْسَبُ لَهُ الأُجْرَةُ عَلَى سَبِيلِ نِعْمَةٍ، بَلْ عَلَى سَبِيلِ دَيْنٍ"[٣٩].

وهل الذي يعمل يُعَد أعظم؟ لا على الإطلاق. لأن البر يُحسب للإنسان من حيث إنه آمن بالله. إلاّ أن هذا الإيمان لا يُحسب له برًا إذا لم يقدم شيئًا.

فالله يُكرم ذلك الإنسان أيضًا، ولكن لا من أجل أمور تافهة، بل لأجل أمور عظيمة وهامة. ولأنه أعلن عن رؤية مستنيرة، وفكر روحي متميّز، فإنه لم يتحدث فقط عن ذاك الذي يؤمن، بل قال: "وَأَمَّا الَّذِي لاَ يَعْمَلُ، وَلكِنْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي يُبَرِّرُ الْفَاجِرَ، فَإِيمَانُهُ يُحْسَبُ لَهُ بِرًّا"[٤٠].

---

[٣٩] رو ٤:٣-٤.

[٤٠] رو ٤:٥.

يقول ق. ذهبي الفم. تأمل كم هو عظيم أن يؤمن المرء بأن الله قادر ليس فقط على أن يُخلّص من العقاب ذاك الذي يعيش في الفجور - وبصورة مفاجئة - لكنه قادر أيضًا أن يبرره وأن يحكم بأنه مُستحق لكرامة الحياة الأبدية. لا تظن - كما يبدو لك - أن الأجرة تأتى على سبيل العمل، وليست على سبيل النعمة، وأن ذاك الذي يحيا في الخطية ويؤمن بالذي يُبرر الفاجر، هو أقل من الذي يعمل. ولأجل هذا تحديدًا فإن الإيمان هو الذي يجعل المؤمن مُشرقًا، وأن تمتعه بهذا القدر الكبير من النعمة، يرجع إلى أنه أظهر مثل هذا الإيمان . وانتبه، فإن مكافأة هذا الإيمان ستكون أعظم، لأن الذي يعمل ستُعطى له مكافأة، أما الذي يؤمن سينال البر. لكن يجب أن نعلم أن البر هو أعظم بكثير من المكافأة، لأن البر هو التعويض الذي يشمل مكافآت كثيرة.

وبعدما أظهر حقيقة البر الذي بالإيمان، بدايةً من إبراهيم، أشار بعد ذلك إلى داود الذي تذوق كل ما سبق الإشارة إليه. ماذا قال داود، ومَن هو الإنسان الذي يُطوّبه؟ هل هو الإنسان الذي يفتخر بالأعمال، أم ذاك الذي تمتع بالنعمة، ونال الغفران والعطية؟ وعندما أتكلم عن الطوبى أو السعادة، فإننى أقصد تاج كل الخيرات. لأنه كما أن البر هو أعظم من الأجر، هكذا فإن الغبطة أعظم من البر. وبعدما أظهر عظمة البر، ليس فقط من حيث إن إبراهيم قد ناله، بل لأن البر أعظم من الأفكار (أي تلك التي تعتمد على العمل الذاتى). لأنه كما يقول الرسول بولس إن العمل قد يدعو للفخر " ولكن ليس لدى الله "، أيضًا يُقدم البر على أنه أكثر أهمية، لكن بطرق أخرى، مشيرًا إلى داود الذي تذوقه قائلاً: "كَمَا يَقُولُ دَاوُدُ أَيْضًا فِي تَطْوِيبِ الإِنْسَانِ الَّذِي

يَحْسِبُ لَهُ اللّهُ بِرًّا بِدُونِ أَعْمَالٍ: "طُوبَى لِلَّذِينَ غُفِرَتْ آثَامُهُمْ وَسُتِرَتْ خَطَايَاهُمْ. طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لاَ يَحْسِبُ لَهُ الرَّبُّ خَطِيَّةً"[٤١].

من الواضح أنه لم يُشر إلى شهادة مقبولة، لأنه لم يقل طوبى لمن حُسب له إيمانه برًا. وهو يفعل هذا لا عن جهل، ولكن لكي يظهر عظمة الامتياز. فإن كانت الطوبى تُنسب للإنسان الذي نال غفرانًا بالنعمة، فبالأولى جدًا، ستكون الطوبى لذاك الذي تبرّر، وذاك الذي أظهر إيمانًا. وحيثما يوجد تطويب يختفي كل خجل وتظهر عظمة المجد الإلهي. لأن الطوبى أسمى من الأجر ومن المجد، فما يُعَد ميزة لذاك الذي يعمل، يذكره دون إشارة إلى الكتاب قائلاً: " *أما الذي يعمل فلا تُحسب له الأجرة على سبيل نعمة...*" أما من جهة تميّز المؤمن، فإنه يُظهرها (أي الطوبى) مستشهدًا بالكتاب قائلاً على فم داود: " طوبى للذي غُفر اثمه وسُترت خطيته". ولهذا يتساءل لماذا تظن أنك أخذت الغفران على سبيل دين وليس على سبيل نعمة؟ إذًا فالذي يؤمن، هو ذاك الذي يُطوَّب، ولم يكن الرسول ليُطوب داود، لو لم يرى كيف أنه تمتع بمجد عظيم، ولم يقل إن هذا الغفران يتعلق باليهودى، لأنه يقول: " أَفَهذَا التَّطْوِيبُ هُوَ عَلَى الْخِتَانِ فَقَطْ أَمْ عَلَى الْغُرْلَةِ أَيْضًا؟"[٤٢]. ها هو يفحص لمن يكون هذا التطويب، أهو لليهودي أم للأممي.

بعد ذلك يقول ق. ذهبي الفم، إنتبه إلى هذا الامتياز. لأنه يُظهر أن هذه الطوبى لا تتجاوز الأممي، بل إنها تأتي إليه قبل اليهودي. لأن ذاك الذي يطوبه داود، كان أيضًا مُختتنًا، وكان يتحدث إلى

---

[٤١] رو ٤: ٦-٨.

[٤٢] رو ٤: ٩.

مختونين. لاحظ كيف حاول الرسول بولس أن يوجه حديثه إلى الأممي، فبعدما ربط البر بالطوبى في وحدة واحدة معًا، وبعدما أظهر كيف أن الاثنين كانا واحد، يشرح كيف تبرّر إبراهيم، لأنه إذا كان التطويب يتعلق بالبار، وقد تبرّر إبراهيم، إذ يقول "لأننا نقول إن الإيمان قد حُسِبَ لإبراهيم برًا".

فهو قد تبرر بالإيمان، لكن "ليس في الختان بل في الغرلة" ولهذا سبق فتكلّم عنه، وهذا ما سبق وذكره الكتاب، حينما قال "فآمن إبراهيم بالله فحُسب له برًا"، ولأن الرسول بولس يميّز هنا بين المختون والأغرل، فقد بيّن كيف أن البر قد صار للأغرل. ثم بعد ذلك يقدم حلاً للتباين الذي نتج عن كل ما سبق عرضه. ويتساءل إن كان إبراهيم قد تبرر عندما كان أغرل، فلماذا أشار إلى الختان؟ قائلاً: " وَأَخَذَ عَلاَمَةَ الْخِتَانِ خَتْمًا لِبِرِّ الإِيمَانِ الَّذِي كَانَ فِي الْغُرْلَةِ"[٤٣].

أرأيت كيف أظهر الرسول بولس هؤلاء اليهود، مثل الطفيليين؟ وكيف أن غير المختتنين قد وصلوا إلى نفس مكانة اليهود؟ لأنه إذا كان إبراهيم قد تبرر وتوّج عندما كان أغرل، ثم بعد ذلك اختتن، وبعد ذلك قَبِل اليهود الختان، فيكون إبراهيم أولاً أبًا للذين كانوا في الغرلة، وهؤلاء هم أقرب له بسبب الإيمان، ثم صار بعد ذلك أبًا للختان، إذًا فهو أب مزدوج. أرايت كيف أنه يعطي أهمية عظيمة للإيمان؟ لأن إبراهيم لم يتبرر قبل أن يؤمن. أرايت كيف أن الغرلة لا تعوق التبرير مطلقاً؟ لأنه كان أغرل ولم يعوقه هذا عن نوال البر. وبناء عليه فالإيمان يسبق الختان.

---

[٤٣] رو ٤: ١١.

ولماذا تشك في حقيقة أن الختان يأتي بعد الإيمان، طالما أنه يأتي بعد الغرلة؟ وهو ليس فقط بعد الإيمان، بل أنه أدنى بكثير من الإيمان، بمقدار ما يكون الرمز أقل من العلامة الأصلية التي أُخذ منها، على سبيل المثال هو أدنى، بقدر ما يكون الختم الذي يحمل صورة جندى أدنى من الجندى نفسه.

ولكن لماذا احتاج إبراهيم إلى ختم؟ إنه لم يكن في احتياج لختم (الختان). فلأى سبب قَبِله؟ لقد قَبِله " **ليكون أبًا لجميع الذين يؤمنون"،** ليس فقط للذين ليسوا من الختان، بل ليكون أبًا للختان أيضًا. ولهذا أضاف: " *لجميع الذين يؤمنون وهم في الغرلة كي يُحسب لهم أيضًا البر*". إذًا فلو كان أبًا للذين هم في الغرلة - فذلك ليس لكونه أغرل - على الرغم من أنه تبرر عندما كان في الغِرلة، بل لأنهم سلكوا في خطوات إيمان إبراهيم، وبالأولى جدًا لا يعتبر أبًا للذين هم في الختان - بسبب الختان - بل بسبب الإيمان فقط . وقد أخذ الختان، حتى يكون أبًا لكلاهما (للختان وللغرلة)، وأيضًا حتى لا يحتقر الذين هم في الغرلة، أولئك الذين هم في الختان.

أرايت كيف كان أولاً أبًا لأولئك الذين هم في الغرلة؟ وطالما أن الختان هو أمر هام - لأنه يُخبر عن البر - فإن الغرلة لها قيمة عظيمة، إذ أنها تعلن عن البر الذي يسبق الختان. عندئذٍ يُمكنك أن تقول بأن إبراهيم هو أب لك، عندما تقتفى خطوات إيمانه، ودون أن تتشاجر أو تثور عندما تتكلم عن الناموس. وأى إيمان هذا الذي يجب أن تتبعه؟ الإيمان " الذي كان وهو في الغرلة"

ختم الإيمان

ثم يشرح ق. يوحنا ذهبي الفم كيف أن الرسول بولس قد أراد أن يضبط ويُحجّم افتخار اليهود، مُذكّرًا إياهم بزمن البر، حينما تكلَّم عن الذين يسلكون في خطوات أبينا إبراهيم. وحسنًا قال: "يسلكون في خطوات"، وذلك لكى تؤمن أيها اليهودي بقيامة الأموات على شبه إيمان (الذي آمن بالمواعيد وحيّاها من بعيد). لأن إبراهيم من جهة هذا الأمر، أظهر إيمانًا. وبناء على ذلك فإن كنت ترفض الغرلة فلتعلم جيدًا، أنك لن تحصد أي مكسب، ولا حتى من الختان. فإن لم تتبع خطوات الإيمان، فلن تكون ابنًا لإبراهيم، وحتى لو أختتنت آلاف المرات، إذ أنه أخذ الختان ختمًا لبر الإيمان، لكي لا يرفضك الأغرل. إذًا لا تطلب من الأغرل أن يختتن، لأن هذا الأمر (أي الختان) قد صار لك عونًا، وليس للأغرل.

بيد أن الرسول بولس يقول إن الختان هو علامة للبر. وهذا قد صار من أجلك، إلاّ أنه (أي الختان) قد انتفى الآن ولم يعد له وجود. لأنه في ذلك الزمان كنت تحتاج لعلامة جسدية، لكن الآن لا يوجد أي احتياج لذلك. فهل كان ممكنًا من جهة الإيمان أن نتعرف على فضيلة ما في نفسه؟ من المؤكد أن هذا كان ممكنًا، لكنك كُنتَ بحاجة لمثل هذه الإضافة (أي الإيمان). ولأنك لم تتذوق الفضيلة، ولم تستطع أن تحياها، فقد أُعطي لك الختان الجسدى، حتى عندما تمارس هذا الختان الجسدى، تُقَاد خطوة خطوة نحو الحكمة، وطالما أنك تستطيع أن تقتنيها بمحاولات كثيرة - كأمر له أهمية كبيرة - فلتتعلّم أن تسير في خطوات إبراهيم. وهذا لم يفعله الله بالنسبة للختان، بل بالنسبة لكل

الأمور الأخرى، مثل الذبائح، والسبوت، والاحتفالات . إذًا فقد أخذ إبراهيم الختان لأجلك، واسمع ماذا يقول؟ لأنه بعدما قال، أخذ علامة، وختمًا، أضاف السبب وراء ذلك قائلاً: "*لكي يصير أبًا للختان*" أبًا لأولئك الذين يقبلون الختان الروحى، لأنه لو أخذت الختان الجسدى فقط، فلن تنتفع بأي شيء آخر أكثر من هذا.

لذلك فإن الختان كان آنذاك بمثابة علامة، وذلك في الوقت الذي كانت فيه هذه العلامة تتمم كرمز لأمر واضح بالنسبة لك، وهو الإيمان . وهكذا فإن لم يكن لديك إيمان، فإن هذه العلامة ستفقد قيمتها ومعناها، لأنه لأي شيء سترمز تلك العلامة، وهذا الختم، إن لم يوجد الإيمان الذي يُختَم لأجله؟ كما لو كنت قد أريتنا حافظة عليها ختم، ولكنها لا تحتوي على أي شيء داخلها. ولذلك فالختان سيكون مدعاة للسخرية، عندما لا يلازمه الإيمان. لأنه لو كان الختان علامة للبر، فلن يكون لديك برًا ولا علامة . ولهذا السبب تحديدًا قد وُضِعت علامة (الختان). لكي تطلب بإلحاح، الأمر الذي لأجله وُضِعت هذه العلامة، (وهو الإيمان). لأنه لو أن الأمر يتعلق بطلب الإيمان، دون العلامة، فلن تحتاج للعلامة. لكن الإيمان لا يُعلّم عن البر فقط، بل يُعلّم أيضًا بأنه ليس هناك حاجة للختان وللناموس: " فَإِنَّهُ لَيْسَ بِالنَّامُوسِ كَانَ الْوَعْدُ لإِبْرَاهِيمَ أَوْ لِنَسْلِهِ أَنْ يَكُونَ وَارِثًا لِلْعَالَمِ، بَلْ بِبِرِّ الإِيمَانِ. لأَنَّهُ إِنْ كَانَ الَّذِينَ مِنَ النَّامُوسِ هُمْ وَرَثَةً، فَقَدْ تَعَطَّلَ الإِيمَانُ وَبَطَلَ الْوَعْدُ"[٤٤].

لقد أظهر أن الإيمان هو ضرورة، وأنه سابق على الختان، وأنه أقوى من الناموس، وهو يثبّت الناموس. إذًا فطالما أن الجميع

---

[٤٤] رو٤: ١٣-١٤.

أخطأوا، فالإيمان هو ضرورة. ومادام إبراهيم قد تبرّر وهو في الغرلة، فالإيمان أسبق، وطالما أنه قد بات واضحًا من خلال الناموس، أن الإيمان هو الأقوى، وطالما أن الناموس يؤكده، وهو يثبّت الناموس، فلا يوجد تعارض، بل تآلف وتعاون. وقد بيَّن الرسول بولس في موضع آخر، أنه من غير الممكن أن نصير ورثة بالناموس، وأيضًا يقارن بين الإيمان والناموس، قائلاً: "*لأنه إن كان الذين من الناموس هم ورثة فقد تعطل الإيمان*". ولكي لا يقول أحد أنه من الممكن أن يكون لديه إيمانًا، وأن يحفظ الناموس في الوقت نفسه، فقد أكد على استحالة تحقيق هذا الأمر. ولهذا قال: "*فقد تعطل الإيمان*". بمعنى أنه إذا حدث ذلك فإنه لا حاجة للخلاص كنعمة، ولا يمكن أن تُستعلن قوة الإيمان، وحينئذٍ يبطل الوعد. ربما يستطيع اليهودي أن يقول ما حاجتي للإيمان؟ باعتبار أنه يحفظ الناموس، إلاّ أنه إذا تعطل الإيمان، فحتمًا سيبطل الوعد.

لاحظ أن الرسول بولس يُقاومهم، وهو يرجع إلى البداية، أي إلى زمن إبراهيم. وإذ أظهر أن البر مرتبط بالإيمان منذ ذلك الحين، فهو بهذا يوضح أن الوعد مرتبط (بالإيمان) بنفس الطريقة. لكي لا يقول اليهودي: وماذا يعنيني إن كان إبراهيم قد تبرر بالإيمان؟ يقول الرسول بولس لكن الوعد بالميراث - وهو الأمر الذي يهمك - لا يمكن أن يتحقق بدون الإيمان، وهذا الأمر يُسبب قلقًا وخوفًا كبيرًا لليهود. لكن عن أي وعد يتكلم؟ الوعد بأن يصير ذاك وارثًا للعالم، وأن بواسطته سيتبارك الجميع . وكيف بطل هذا الوعد؟ يقول الرسول بولس:" لأَنَّ النَّامُوسَ يُنْشِئُ غَضَبًا، إِذْ حَيْثُ

لَيْسَ نَامُوسٌ لَيْسَ أَيْضًا تَعَدٍّ"[45].

فإذا كان الناموس ينشئ غضبًا، ويجعل الناس مسئولين عن المخالفات التي يرتكبونها، فمن الواضح جدًا أنه جاء للّعنة. لذلك فإن أولئك المخالفون الذين استحقوا اللعنة والعقاب، ليسوا مستحقين أن يصيروا ورثة، بل أن يُدانوا وأن يُستبعدوا من الميراث. ماذا حدث إذًا؟ الذي حدث هو أن الإيمان أتى بالنعمة، لكي يتحقق الوعد. لأنه حيث توجد النعمة يوجد غفران، وحيث يوجد غفران، لا توجد أى إدانة. وعندما تبطل الإدانة ثم يأتى بعد ذلك البر الذي بالإيمان، عندئذٍ لا يوجد أي شيء يمكن أن يُعيقنا عن أن نصير ورثة للوعد الذي يأتي بواسطة الإيمان. لذلك يقول الرسول بولس:

" لِهذَا هُوَ مِنَ الإِيمَانِ، كَيْ يَكُونَ عَلَى سَبِيلِ النِّعْمَةِ. لِيَكُونَ الْوَعْدُ وَطِيدًا لِجَمِيعِ النَّسْلِ. لَيْسَ لِمَنْ هُوَ مِنَ النَّامُوسِ فَقَطْ. بَلْ أَيْضًا لِمَنْ هُوَ مِنْ إِيمَانِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي هُوَ أَبٌ لِجَمِيعِنَا"[46].

النعمة والوعد

يقول ق. ذهبي الفم، أنظر كيف أن الإيمان لا يُدّعم الناموس. وليس هذا فقط، بل ولا يُكذّب وعود الله، بل على العكس فإن الناموس يُبطل الإيمان، وذلك عندما يُحفظ في وقت غير مناسب فيبطل الوعد؟ إن هذا كله يُظهر كيف أن الإيمان هو أمر هام وضروري جدًا، حتى أنه لا يمكن أن نخلص بدونه. فمن المؤكد أن الناموس يُنشيء غضبًا، طالما أن الجميع خالفوه، بينما الإيمان لا يترك مجالاً ليسود فيه الغضب، لأن الرسول بولس يقول: " إذ

[45] رو٤: ١٥.

[46] رو٤: ١٦.

حيث *ليس ناموس ليس أيضًا تعد*".

وكيف أنه لم يتحدث عن محو أو إزالة الخطية (عن طريق الناموس)، وليس هذا فقط، بل ولم يترك مجالاً للحديث عن أن الوعد يمكن أن يكون نتيجة العمل بالناموس؟ ولهذا قال "*على سبيل النعمة*". لكن لماذا قال على سبيل النعمة؟ قال هذا لا لكي نخجل، بل " *ليكون الوعد وطيدًا لجميع النسل*". وهنا يشير الرسول بولس إلى الخيرات، حيث إن الوعد بالخيرات هو أمر مؤكد، وأن هذه الخيرات ستُعطى لجميع النسل، وتشمل أولئك الذين يأتون من الأمم، ويُدلّل على أن اليهود سيكونوا خارج هذه الوعود، إذا قاوموا الإيمان، لأن هذا الوعد هو أكثر ضمانًا من الناموس. فلا تحتج أو تُعارض من جهة أهمية الإيمان لتحقيق الوعد، لأن الإيمان لا يسبب لك ضررًا، بل على العكس عندما تتعرض لخطر من الناموس، فإن الإيمان ينقذك ويحفظك من هذا الخطر. لأنه قال بعد ذلك: " *لجميع النسل* "، وهو يُحدد إلى أى نسل: " *لمَن هو من إيمان إبراهيم*"، مشيرًا إلى القرابة التي صارت للأمم، ومبينًا أنه لا أحد يستطيع أن يفتخر بإيمان إبراهيم، إلاّ الذين يسلكون في خطوات إيمان إبراهيم. وها هو أمر ثالث قد صنعه الإيمان، أي جعل القرابة إلى إبراهيم البار أكثر تأكيدًا، وجعله أبًا لنسل كثير. ولهذا لم يقل فقط " إبراهيم " ولكن " أبو المؤمنين، أى أنه أبًا لجميعنا ". ثم بعد ذلك يؤكد على ما سبق وقاله، من خلال شهادة كتابية قائلاً: " أَمَّا أَنَا فَهُوَذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ " [47].

---

[47] تك١٧: ٤.

هكذا تم إعداد كل هذا منذ البداية بواسطة العناية الإلهية. ماذا لو أن كل ذلك قد قاله للإسماعيليين أو لعماليق أو للهاجريين؟ هذا الإيمان ظل يظهره بكل وضوح، بمعنى أن الإيمان لم يُقدّم لهؤلاء، لكنه تعجّل أولاً أن ينتقل لأمر آخر أظهر به نفس الشيء، من خلال هذه القرابة، وقد أظهر ذلك برؤية ثاقبة. ماذا قال إذاً؟ قال: "*أمام الله الذي آمن به*". وما يقوله يعنى الآتي:

تمامًا كما أن الله ليس هو إله للبعض فقط، لكنه أب للجميع، هكذا إبراهيم أيضًا. وكما أن الله ليس هو أبًا، وفقًا للقرابة الطبيعية (البشرية)، لكنه أب وفقًا للقرابة التي بالإيمان، هكذا إبراهيم أيضًا، لأن خضوعه لله (بالإيمان)، جعله أبًا لجميعنا.

ولأن اليهود اعتبروا أن قرابة الإيمان ليست لها أهمية، طالما أن لهم صلة القرابة الطبيعية (بإبراهيم)، فقد أظهر الرسول بولس أن القرابة بالإيمان هى أكثر أهمية، حيث إنه يتكلّم عن عطية الله. بالإضافة إلى ذلك فقد أوضح أن إبراهيم قد نال المكافأة بسبب الإيمان . وبناء على ذلك فإن لم يكن هناك إيمان، فحتى لو كان إبراهيم أبًا لجميع البشر في كل الأرض، فإن عبارة "أمام الله" ليس لها أهمية، بل وتكون عطية الله قد انقطعت، لأن كلمة "أمام" تعني أن الجميع متساوون أمامه، إذ أنه (لا يُحابي أحدًا). وما هو العجيب في أن يكون إبراهيم أبًا لكل مَن ينحدر منه؟ لأن هذا ما يتعلق بكل البشر، فكل إنسان له أصل ينحدر منه. إذًا فالعجيب هو أن كل مَن لم ينحدر منه بحسب القرابة الطبيعية، قد صار قريبًا له بواسطة نعمة الله.

ولذلك، فلو أردت أن تعرف كيف كُرِّم إبراهيم، فاعلم أن هذا قد حدث بسبب إيمانه، لأنه آمن بأنه سيكون أبًا للجميع. وعندما ذكر عبارة: " *أمام الله الذي آمن به*"، لم يتوقف عند هذا الحد، بل أضاف: "***الذي يُحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة***"، مُشيرًا إلى القيامة العتيدة أن تحدث. وفي هذه الحالة كان الأمر مفيدًا له. لأنه طالما أن في إمكان الله أن يُعطي حياة للموتى، ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة، بهذا يصير من الممكن أيضًا أن يجعل لإبراهيم أولادًا لم يولدوا من صلبه. ولهذا لم يقل الذي أحضر للوجود الأشياء غير الموجودة، ولكن " الذي يدعو "، فيوضح مدى السهولة التي يخلق بها الله الأشياء. فكما أنه من السهل بالنسبة لنا أن نُشكّل الأشياء الموجودة، هكذا فإنه من السهل بالنسبة لله، بل وأكثر سهولة، أن يعطى كيانًا للأشياء غير الموجودة. لكن بعدما قال أن عطية الله عظيمة ولا يُعبّر عنها، وبعدما تحدث عن قوة الله، بيَّن كيف أن إيمان إبراهيم جعله مستحقًا للعطية، لكي لا تتصور أن إبراهيم قد كُرّم بدون سبب . وبعدما حث المستمع ألا يُثير قلقًا، ولكى لا يشك اليهودي ويقول كيف يكون أن الذين ليسوا هم أولاده، يصيروا أولاده، ينتقل بحديثه مرة أخرى إلى إبراهيم، ويقول: " فَهُوَ عَلَى خِلاَفِ الرَّجَاءِ، آمَنَ عَلَى الرَّجَاءِ، لِكَيْ يَصِيرَ أَبًا لأُمَمٍ كَثِيرَةٍ، كَمَا قِيلَ:«هكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ"[٤٨].

ويتساءل القديس ذهبي الفم، قائلاً: كيف وهو على خلاف الرجاء قد آمن على الرجاء؟ هذا يعنى: أنه آمن على خلاف الرجاء

---

[٤٨] رو ٤: ١٨.

الإنسانى، إذ أنه وضع رجائه في الله. هنا يُبيّن عظمة هذا الأمر ولا يترك مجالاً للشك في هذا الكلام، فالأمر يحمل تناقضًا (بمعنى أن الذين ليسوا أولادًا قد صاروا أولادًا)، إلاّ أنه قد وحّدهم معًا بالإيمان . لكنه لو تكلّم عن نسل إسرائيل، لكان هذا الحديث أمرًا زائدًا. لأن هؤلاء اليهود كانوا أولادًا ، لا بالإيمان بل بالطبيعة.

ثم يشير إلى اسحق وكيف كان إبراهيم متشككًا في إمكانية إنجابه من امرأة عاقر، وليس من جهة أنه سيصير أبًا لأمم كثيرة. إذًا هى مكافأة أن يصير أبًا لأمم كثيرة. وواضح كيف صار أبًا لأمم كثيرة، إذ آمن لأجلهم، وهذا ما يوضحه الكلام الآتي: " وَإِذْ لَمْ يَكُنْ ضَعِيفًا فِي الإِيمَانِ لَمْ يَعْتَبِرْ جَسَدَهُ - وَهُوَ قَدْ صَارَ مُمَاتًا ، إِذْ كَانَ ابْنَ نَحْوِ مِئَةِ سَنَةٍ - وَلاَ مُمَاتِيَّةَ مُسْتَوْدَعِ سَارَةَ"[٤٩].

ثم يقول: أرايت كيف يذكر العوائق ورغبة البار (أي إبراهيم) الشديدة، في أن يتغلّب على كل شيء؟ فهو قد نال الوعد على خلاف الرجاء، وكان هذا أول عائق. لأن إبراهيم لم يستطع أن يرى مثالاً آخر أى شخص قد أنجب ولدًا بهذه الطريقة. فالذين أتوا بعد إبراهيم قد رأوا تحقيق هذا الأمر في شخص إبراهيم، بينما هو نفسه لم يرى هذا في أي شخص آخر، بيد أنه رأى إمكانية تحقيقه بالثقة، بالإيمان فقط، ولذلك قال " على خلاف الرجاء ". ثم بعد ذلك كان العائق الثانى وهو أن جسده كان مماتًا ، وأيضًا مماتية مستودع سارة، وهذا يُمثل عائق ثالث ورابع أيضًا.

---

[٤٩] رو٤:١٩.

إيمان إبراهيم

إلا أنه لم يرتاب في وعد الله بل تقوى بالإيمان معطيًا مجدًا لله، لأن الله لم يعطِ برهانًا ولا صنع معجزة، وما قدمه هو فقط كلامًا بسيطًا، لكنه كان يحمل وعودًا لم تستطع الطبيعة أن تَعِد بها. لأجل هذا يقول الرسول بولس إنه: " لم يرتاب " ولم يقل لم يؤمن، لكنه قال " *ولا بعدم إيمان ارتاب* "أي أنه لم يتردد ولا تشكك، على الرغم من أن العوائق كانت كثيرة.

إن ذلك كله يعلّمنا أن الله حتى وإن أعطى وعودًا لا حصر لها وتبدو مستحيلة ولم يقبلها الذي يسمعها، فإن الضعف لا يرتبط بطبيعة الوعود، بل بحماقة الذي لم يقبلها. ثم يقول الرسول بولس عن إبراهيم: " *بل تقوى بالإيمان*". أرأيت حكمة القديس بولس، فلأن الكلام كان موجهًا إلى أولئك الذين يعملون (بالناموس)، والذين يؤمنون، فإنه يُبين أن ذاك الذي يؤمن، يجاهد ويحتاج لقدرات أكبر وقوة أكثر من الذي يعمل. لأنهم بالحقيقة قد احتقروا الإيمان وقالوا إن ليس فيه ألم. إذًا لأجل هذا الهدف يوضح أنه ليس فقط ذاك الذي يجاهد من أجل العفة أو أى شيء آخر مشابه، يحتاج لقوة، بل ذاك الذي يُظهر إيمانًا أيضًا في حاجة للقوة . لأنه كما أن ذاك الذي يقاوم أفكار الفسق أو الفجور، هو في حاجة إلى قوة، هكذا مَن يؤمن، يحتاج أيضًا إلى نفس صلْبة، لكي يستطيع أن يقاوم أفكار هى ضد الإيمان .

وكيف صار إبراهيم قويًا؟ يقول الرسول بولس: بالإيمان، وبدون أن يترك إبراهيم هذا الأمر للأفكار، لئلا يفقد شجاعته. وكيف حقق هذا الإيمان؟ حققه " معطيًا مجدًا لله"، ويتابع

القديس بولس كلامه عنه بقوله: " وَتَيَقَّنَ أَنَّ مَا وَعَدَ بِهِ هُوَ قَادِرٌ أَنْ يَفْعَلَهُ أَيْضًا. لِذلِكَ أَيْضاً: حُسِبَ لَهُ بِرًّا"[٥٠].

وبناء عليه ينبغي ألاّ نفحص وعد الله كثيرًا، لأن قبول الوعد هو تمجيد لله، لكن ما يُعَّد بالحقيقة خطية، هو الفحص في وعود الله كثيرًا. فإذا كنا لا نتمجَد عندما نفحص كلامه بفضول، وعندما نسعى لطلب الأمور الأرضية، فبالأولى كثيرًا ينبغي ألاّ ننشغل بكيفية ميلاد الرب، لأننا سنُعاني كثيرًا إذا اتبعنا هذا السلوك غير المستقيم. وإن كان لا ينبغي أن نفحص الشكل أو النموذج الذي ستكون عليه القيامة، فبالأولى كثيرًا لا ينبغي أن نفحص تلك الأمور الفائقة التي لا يُعبّر عنها. ولم يقل الرسول بولس إن إبراهيم كان واثقًا، لكنه قال "تيقن"، لأن هذا هو الإيمان، فهو أكثر وضوحًا من برهان الأفكار وله قوة إقناع، فليس هناك فكرًا يستطيع أن يتوغل ويؤثر على هذا اليقين. لأن ذاك الذي يقتنع برأي عند سماعه لكلام مجرد، يمكن أن يغيّر رأيه، بينما ذاك الذي يقتنع بصورة مطلقة من خلال الإيمان، فإنه يقيم سدًا أو سياجًا حول سمعه لصد أى كلام يمكن أن يؤثر في الإيمان. إذًا بعدما قال إن إبراهيم تبرر بالإيمان، أوضح أنه تقوّى بالإيمان معطيًا مجدًا لله، الأمر الذي يُعد ملمحًا خاصًا ومميزًا لطريقة الحياة الصحيحة. يقول رب المجد: " *فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ، لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ، وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ*"[٥١]. ومن الواضح أن هذا السلوك له علاقة وثيقة بالإيمان. وهكذا فكما أن الأعمال تحتاج إلى قوة، فإن الإيمان أيضًا يحتاج

---

[٥٠] رو ٤: ٢١، ٢٢.

[٥١] مت ٥: ١٦.

إلى قوة. فبالنسبة للأعمال، نجد أن الجسد كثيرًا ما يشترك في الجهاد، أما فيما يتعلق بالإيمان، فالأمر يختص بالنفس فقط. وعليه فإن الألم أو التعب يكون أكبر عندما لا يكون لدى المؤمن ما يُعضد به النفس في جهادها.

لنلاحظ إذًا كيف أظهر الرسول بولس أن كل تلك الأمور، التي هى نتائج للأعمال، قد أُضيفت ببركة وفيرة للإيمان، وأن الشخص يمكنه أن يبتهج بهذا أمام الله، عندما يكون محتاجًا إلى قوة ومثابرة، وأنه يُمجِّد الله أيضًا؟ وهذا واضح مما قاله: "*إن ما وعد به هو قادر أن يفعله أيضًا*" يبدو لى أنه يُنبئ بالأمور المستقبلية. لأن الله لم يَعِد فقط بالأمور الحاضرة، بل بالأمور المستقبلية، إذ أن الأمور الحاضرة هى مثال لأمور الدهر الآتى. وبناء على ذلك فإن عدم الإيمان هو ملمح للنفس المريضة والضئيلة والبائسة. حتى عندما يُديننا البعض بسبب الإيمان، يحق لنا أن ندينهم لعدم إيمانهم، كأناس بائسين، وحمقى، ومرضى، وصغار النفوس، ولا يسلكون بطريقة أفضل من البهائم غير العاقلة. لأنه بالضبط كما أن الإيمان هو سمة النفس التقية والعظيمة، هكذا فإن عدم الإيمان هو ملمح للنفس التي تتسم بالغباء الشديد، النفس التافهة التي انحدرت إلى مستوى الحيوانات غير العاقلة.

ولذلك عندما نهجر هؤلاء (أى عديمى الإيمان)، يجب أن نسلك في خطى إبراهيم، ولنمجد الله تمامًا كما مَجَّده هو. لكن ما معنى مَجَّد الله؟ معناه أنه أدرك بره وقوته غير المحدودة، وطالما أنه أدرك ذلك كما ينبغي، عندئذٍ نال الوعود. إذًا فلنُمجد الله نحن أيضًا ـ بالإيمان وبالأعمال ـ لكي ننال المكافأة، بأن نُكَرَّم من

الله، لأنه يقول " *فَإِنِّي أُكْرِمُ الَّذِينَ يُكْرِمُونَنِي*"[٥٢]. وحتى لو لم يكن هناك أى مكافأة، فمجرد أن نكون مستحقين لأن نُمجِّد الله، فهذا تحديدًا هو الإكرام. لأن الناس عندما يمدحون الملوك، فإن هذا بحد ذاته يجعلهم يفتخرون، حتى لو لم يوجد أي شيء آخر يربحونه، تأمل في مقدار المجد الذي نناله عندما يُمجَّد الله بواسطتنا. إنه بكل تأكيد، يريد هذا المجد لنا، لأن الله ليس في احتياج لهذا المجد.

السلوك بالروح

إذًا هل لك أن تتصور مدى الفروق التي بين الله وبين البشر؟ هل هى بمقدار الفروق بين البشر والحشرات الدقيقة؟ إلى الآن لم أقل شيء لأوضح هذه الفروق، ولو أنني مُدرك مقدارها الضخم. لأنه من المستحيل أن يُحدد المرء مقدار هذه الفروق. فهل يا تُرى سترغب في أن تقتني لك مجدًا مشرقًا وعظيمًا من خلال الحشرات الدقيقة؟ لا على الإطلاق. إذًا فلو أنك، يا مَن تشتهي المجد بكل هذا الاشتياق، لن ترغب في أن تطلب مجدًا من الحشرات، فكيف يكون ذاك الذي هو متحرر من هذه الشهوة (شهوة المجد)، والذي هو أعلى وأسمى من كل شيء، في إحتياج لأن تُمجده ؟ لكنه وإن لم يكن في حاجة للمجد، إلاّ أنه يريده لك. فلو أنه قَبِلَ أن يصير عبدًا من أجلك، فلماذا تندهش لو أنه احتمل الأمور الأخرى لنفس السبب ؟ لأنه لا يستطيع مَن هو غير مستحق في ذاته، أن يقودنا إلى خلاص نفوسنا. وإذ نعرف كل هذا، فلنتجنب كل خطية تؤدى إلى إهانة الله. " *اهرب من الخطية هربك من الحية فإنها إن دَنوت*

---

٥٢ ١صم٢:٣٠.

منها لدغتك[53]. فإن الخطية لا تأتي إلينا، بل نحن نسعى إليها.

فقد صنع الله هذا وأتى إلينا، حتى لا ينتصر الشيطان ويسود، لأن بدون معونة الله، لا يستطيع أحد أن يُقاوم قوته. لهذا فقد أبعده الله كلص وكمستبد. فهو بخداعه واحتياله، لن يتجرأ على مهاجمة أحد، إلاّ إذا كان وحيدًا. وإذ يرانا ونحن نسير في الجدب، فهو يتشجع على الاقتراب منا. لأن الجدب أو القفر هو أيضًا مكان الشيطان، وهذا الجدب ليس سوى الخطية. نحن في احتياج لدرع الخلاص، وسيف الروح، ليس فقط لكي لا نُصاب بأذى، لكن أيضًا لكي نقطع رأس الشيطان، فإذا ما أراد أن يهاجمنا، فيجب أن نُصلى دومًا لكي يُسحق تحت أقدامنا. لأنه يتصف بعدم الحياء والخسة، فهو يهاجم مُنطلقًا من أمور الدنيا التي لا سمو فيها، وهكذا ينتصر. والسبب في هذا النصر، هو أننا لا نُحاول أن نكون في وضع أعلى من أن تطولنا ضرباته، لأنه ليس في وضع يسمح له بالوقوف كثيرًا، لكنه يَنسحب إلى أسفل. فهو لا يملك أرجل يقف عليها، لأنه مثل الحية، إذ هي المثال الذي يرمز للشيطان. فلو أن الله ـ منذ البداية ـ قد حدّد له هذا الوضع، فبالأولى الآن. فإذا كنت لا تعرف ماذا يعني أن يحارب الشيطان مُنطلقًا من الأمور الدنيا فسأحاول أن أشرح لك أسلوب أو طريقة حربه. إنه يوجه الضربات مُزيّنًا للإنسان مدى روعة وجمال الأمور الأرضية، أي اللذة والغنى، وكل الأمور الحياتية الأخرى. ولهذا لو أنه رأى شخصًا ينطلق نحو السماء (أي يسمو على الأمور الأرضية)، فلن يستطيع أن يقفز نحوه. هذا أولاً. أما الأمر الثاني

---

[53] حكمة يشوع بن سيراخ ٢:٢١.

فإنه حتى ولو حاول ونجح، فإنه سيسقط سريعًا، لأنه لا يملك أرجل، لذلك لا تخاف منه إذ لا أجنحة له، ولا ترتعب أمامه لأنه يزحف فوق الأرض، ومرتبط بالأمور الأرضية. إذًا ينبغى أن تسمو فوق كل الأمور الأرضية المادية، وإذًا حدث ذلك فلن تتعرض لأي أذى. لأنه لا يعرف أن يحارب مواجهة، لكنه مثل الحية يختفى بين الأشواك ويتربص باستمرار مختفيًا في خداع الغنى أو الثروة. ولو أنك أزلت الأشواك، سيرحل سريعًا، لأنه جبان، ولو أنك تعرف أن تستخدم القوة الإلهية، وهى إسم ربنا يسوع المسيح، وقوة الصليب، فسيخرج على الفور لأنه يوجد لدينا قوة روحية، هذه القوة، ليست فقط قادرة على أن تُخرج الحيّة من وكرها، وتلقيها في النار، بل وتشفي الجروح الناتجة عن لدغها أيضًا.

لكن لو قال كثيرون إنهم لم يُشفَوْن، فهذا يرجع إلى ضعف إيمانهم. لأن كثيرين دفعوا المسيح بقوة (بسبب تزاحمهم عليه) ولمسوه من كل جانب، ولم يربحوا شيئًا، لكن المرأة نازفة الدم. قد شُفيت بعد أن عانت طويلاً من مرضها، رغم أنها لم تلمس جسده، بل لمست فقط هدب ثوبه[٥٤]. إن اسم ربنا يسوع المسيح هو مُخيف للشياطين، ويُحرر من الشهوات، ويبرئ من الأمراض. فلنفتخر بهذا الإسم إذًا ونحصن أنفسنا به[٥٥]. وهكذا صار بولس عظيمًا على الرغم من أنه يحمل نفس طبيعتنا، إلاّ أن إيمانه جعله

---

[٥٤] مت٩:٢٠.٢٢، لو٨:٤٣.٤٨.

[٥٥] كما يقول الكتاب " اسم الرب برج حصين يركض إليه الصديق ويتمنع " (أم١٨:١٠). هذا ما توضحه وتؤكد عليه كنيستنا القبطية في إبصالية السبت: " أعطى فرحًا لنفوسنا تذكار اسمك القدوس يا ربي يسوع المسيح مخلصي الصالح .. أنت وحدك مستحق أن نباركك .. أنت مستحق المجد والكرامة.. تسبح اسمك القدوس كل قبائل الأرض .. الخ. الابصلمودية السنوية حسب ترتيب آباء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، مطرانية بني سويف، سنة ١٩٩١، ص٢٥١.٢٥٦.

متميزًا عنا تمامًا. وكم كانت عظيمة تلك القوة التي كان يتصف بها[56]. إذًا كيف يكون لدينا القدرة لندافع عن أنفسنا، عندما لا تقدر صلواتنا أن توقف ولا حتى الشهوات، بينما كانت ظلال وملابس (بطرس وبولس) تقيم الموتى؟ إذًا ما هو السبب؟ السبب يرجع إلى تلك الفروق الكبيرة جدًا في الرغبة الداخلية، فالعطايا الطبيعية الخاصة بالإنسان هى واحدة ومشتركة بين الجميع، طالما أنه (أى الرسول بولس) ولد مثلنا، ونمى وعاش على نفس الأرض، وتنفس من نفس الهواء، إلا أنه كان أعظم وأفضل منا في الأمور الأخرى، أى في النية الحسنة وفي الإيمان والمحبة. فلنسلك إذًا كما سلك الرسول بولس، ولنسمح للمسيح أن يتكلم معنا. إن المسيح يشتهي أن نسلك بالروح، بل وأكثر جدًا مما نشتهيه نحن لأنفسنا، ولهذا خلق لنا هذه الأداة (أي العقل)، فهو لا يريد له أن يبقى بلا فائدة أو في تواني، إنما يريدنا أن نستخدمه على الدوام. فكما أن الآلة الموسيقية عندما تكون أوتارها غير مُعدة أو مرتخية، تصير بلا نفع ولا يستطيع العازف أن يستخدمها، هكذا أيضًا ينبغي علينا أن نُشدّد أعضاء النفس ونحفظها بالملح الروحى. لأنه لو رآها الله منسجمة هكذا فيما بينها، فلابد أن يُسمع صوت المسيح من داخل نفوسنا. وعندما يحدث هذا، سترى الملائكة ورؤساء الملائكة والشاروبيم وهى تطير فرحًا. إذًا لنصير مستحقين لرفع أيادي بلا عيب، ولنترجاه أن ينبض بقوته داخل قلوبنا، ومن الأفضل القول بأنه لا يحتاج إلى أن نترجاه، لكي يفعل هذا، إذ هو يحتاج فقط، أن تُهيئ له القلب كما ينبغي، وحينئذٍ سيركض نحوك ويلمس قلبك.

---

[56] أع١٩: ١٢.

فإن كان يركض من أجل ضمان الأمور المستقبلية (لأنه سبق وأعد لبولس المديح اللائق به، قبل أن يصير رسولاً للأمم)، فإنه يبذل كل شيء عندما يرى شخصًا كاملاً، أما عندما نسمع لصوت المسيح، فإن الروح القدس سيُحلّق حولنا حتمًا، وسنصير أفضل من السمائيين، ولن يُرى النور فقط داخلنا، بل أن خالق النور والملائكة، هو الذي يسكن ويتجول في داخلنا . أقول هذا، لا لكي نُقيم أمواتًا، ولا لكى نُطهِّر بُرصًا، ولكن لكي نُظهر المعجزة الأعظم من كل هذه الأمور، وهى المحبة. لأنه حيث توجد المحبة، سيوجد على الفور الابن مع الآب وستحل نعمة الروح القدس من السماء. لأنه يقول: " *لأَنَّهُ حَيْثُمَا اجْتَمَعَ اثْنَانِ أَوْ ثَلاَثَةٌ بِاسْمِي فَهُنَاكَ أَكُونُ فِي وَسْطِهِمْ*"[٥٧]. هذا دليل رغبة مؤكدة، وسمة يتميّز بها أولئك الذين يُحِبون بكل قدرتهم، بمعنى أنهم سيلتقون بكل مَن يُحبون، سيلتقون بالله الذي يحبونه، ويلتقون أيضًا بآخرين يَكنّون لهم كل محبة.

ومَن هو ذلك البائس الذي لا يريد حلول المسيح في الوسط؟ لأنه إن لم يحل المسيح في الوسط، فكيف ستُحَل المشاكل بيننا. ومَن سيكون السبب في هذا؟ ربما سيتهكم عليَّ أحد قائلاً: ماذا تقول؟ هل نحن الذين نجتمع تحت سقف كنيسة واحدة ونتمتع بوفاق وسلام، هل لا توجد حروبًا بيننا، رغم أننا نتحدث ونتفاهم معًا ونحن تحت رعاية راعى واحد، ونسمع التعليم معًا، ونرفع الصلوات معًا إلى فوق، هل نسيت ما حدث من مشاحنات وثورات؟ لم أنسى، ولست مخبولاً ولا فقدت عقلي. لأنني من المؤكد أرى تلك الأمور وأعرف كيف أننا نوجد تحت سقف نفس الكنيسة،

---

[٥٧] مت١٨: ٢٠.

وتحت رعاية نفس الراعى، ولهذا السبب تحديدًا أشعر بالحزن، لأننا نتشاجر على الرغم من أن هناك أمورًا كثيرة يمكن أن توحّدنا . وقد يسألني البعض وأى نزاعًا ترى هنا؟ أقول، هنا لا يوجد نزاعًا، ولكن عندما نتفكك، وعندما يدِين أحد غيره، وهذا يدِين ذاك، ويُهين آخر علنًا، وعندما يصير آخر حسودًا وطماعًا وخاطفًا، وآخر يستخدم العنف منهجًا له، وآخر يُعلن عن عطفه بطريقة سيئة، وآخر يحيك مكائد ودسائس لا حصر لها. هنا يُستعلن النزاع والشجار والمشاحنة، فإذا تمكّنتم من اكتشاف حقيقة أنفسكم، عندئذٍ ستستطيعون أن ترون كل هذا بدقة وستدركون أننى لست مخبولاً.

ويوضح ق. ذهبي الفم ذلك بمثال، قائلاً: ألا ترون كيف أن الجنود في حالة السلم يتركون الأسلحة ويعبرون إلى المعسكرات مُجردين من الأسلحة، بينما يختلف المشهد في حالة الحرب عندما يكونوا مُسلحين وحراسًا، فتكون هناك مقدمة للجيش، وتبدأ الخدمات الليلية، وتوقد النار بصفة دائمة، الأمر الذي لا يُعلن عن حالة سلام، بل عن حالة حرب. ومن الممكن أن يرى المرء نفس هذا النهج يحدث بيننا. حيث يحترس الواحد من الآخر، ويسود الخوف، ويتكلم كل واحد مع قريبه بالهمس، وعندما نرى أحدًا يقترب نصمت ونوقف الكلام دون أن يكتمل، الأمر الذي لا يعتبر سمة لأُناس شجعان، بل أناس يتوجسون من الآخر. ولهذا أحزن، لأننا بينما نحيا بين اخوة، فإننا نلجأ إلى الحرص الزائد، مُشعلين نارًا كثيرة، واضعين حراسًا، وكأننا في معسكر حرب مع أعداء، والسبب في ذلك هو الكذب الكثير، والخداع الكثير وغياب المحبة الواضح، والسلوك العدواني. ولهذا تحديدًا فمن الممكن أن

يجد المرء الكثيرين من عبدة الأوثان لديهم شجاعة أكثر من المسيحيين. كم من المهانة تستحق مثل هذه الأمور؟ وكم تستحق الكثير من البكاء عليها والرثاء لها؟ وقد يقول أحدكم وماذا أفعل ألا ترى أن ذلك الإنسان هو سيء السلوك وخبيث؟ أقول له: وأين هو احتمالك؟ ألا تقض القوانين الرسولية بأن يحتمل الواحد أثقال الآخر؟ لأنه إن لم تعرف كيف تسلك بصورة صحيحة تجاه أخيك، فمتى سيمكنك أن تسلك بمحبة تجاه الغريب؟ وإذا كنت لا تعرف أن تتعامل مع العضو الذي يُسبب لك متاعب. فمتى ستتمكن أن تجذب ذاك الذي هو خارج الكنيسة. وأن تجعله واحدًا مع نفسك؟ وأمام كل ما يحدث فإني أتساءل عما يمكنني فعله؟ وأجد صعوبة كبيرة جدًا في أن إسكب الدموع، لأنني سأسكب ينابيع دموع غزيرة من عينيّ. إن إرميا النبى عندما رأى الأعداء وهم يبدأون هجومًا، قال: "*أَحْشَائِي! تُوجِعُنِي*"[٥٨] وأنا أرى في تلك الساحة (التي تجمع المؤمنين معًا أى الكنيسة) حروبًا كثيرة، وهى أكثر رعبًا من هذه الحروب التي أشار إليها إرميا. وبينما أنتم تحت قيادة قائد جيش واحد (أي المسيح)، إلاّ أنكم تثورون، الواحد ضد الآخر، ويأكل بل ويفترس الواحد أعضاء الآخر، البعض من أجل المال، والبعض من أجل المجد، كما يسخر آخرون منكم بدون سبب ويهزءون، فأنتم تُحدِثون إصابات كثيرة فيما بينكم، وينتج عن ذلك أن يسقط قتلى نتيجة هذه الإصابات المفزعة، بل إن عدد القتلى يفوق ما يسقط في الحروب، وكلمة "أخوة" تصير مجرد كلمة عادية، لذلك لا أستطيع أن أفكر في عمق الأنين الذي يُعبّر عن هذه المأساة.

---

[٥٨] إر ٤:١٩.

مائدة الرب

ومن أجل هذا ـ هكذا يقول ق. ذهبي الفم ـ ينبغي عليكم أن تحترموا هذه المائدة (أي مائدة الافخارستيا) التي تشتركون فيها جميعًا، وأن تُقدّروا عمل المسيح الذي ذُبح لأجلنا، ولتوقّروا هذه الذبيحة الموجودة فوق هذه المائدة. إن اللصوص الذين يأكلون خبزًا وملحًا مع آخرين، ليسوا بعد لصوصًا بالنسبة لأولئك الذين يأكلون معهم، فالمائدة تُغيّر من صفاتهم، وكذلك أيضًا الذين كانوا أكثر وحشية من الوحوش أنفسهم، تجعلهم المائدة (مائدة الافخارستيا) أكثر وداعة من الحملان، بينما نحن ـ على الرغم من أننا نشارك في مثل هذه المائدة ونأكل نفس الطعام ـ نتسلح الواحد ضد الآخر، بينما كان ينبغي علينا أن نتسلح ضد الشيطان الذي يحاربنا جميعًا. ولهذا السبب عينه فنحن نصير أكثر ضعفًا يومًا فيوم، بينما هذا (الشيطان)، يصير قويًا. لأننا لا نساند بعضنا البعض في مواجهته، لكننا نقف صفًا واحدًا معه، الواحد ضد الآخر، ويصير هو قائدنا في مثل هذه الأحداث في الوقت الذي فيه كان من المفترض، بل من الواجب علينا أن نحاربه. إلاّ أننا نترك مقاومته ونوجه سهامنا الآن ضد اخوتنا. وأى سهامًا نطلقها؟ إنها السهام التي تنطلق من اللسان والفم. لأنه ليس الرماح والسهام الحقيقية هى فقط التي تُسبب إصابات، لكن الكلام الردئ أيضًا يترك جراحات أكثر مرارة من السهام.

وكيف سنتمكن من إنهاء هذه الحرب؟ يحدث هذا عندما تُدرك أنك تتكلم بالسوء على أخيك، وتُخرج كلامًا بذيئًا من فمك، وأيضًا لو أدركت أنك تشي بعضو من أعضاء جسد المسيح،

وأنك تنهش أيضًا في جسدك، ولتعلم أن السهم لا يقتل ذاك الذي يُصاب به، بل يقتلك أنت الذي تُطلقه. ولكن هل ظلمك أحد وصنع بك شرًا؟ إذا حدث ذلك لا تتكلّم بالسوء، بل ابكي، لا من أجل أنك ظُلمت، لكن لأجل هلاكه، كما صنع سيدك وبكى على يهوذا، لا لأنه سلَّمه للصلب، لكن لأن ذاك قد خانه. هل أهانك أحد وسخر منك؟ فلتترجى الله سريعًا أن يُغدق على هذا الإنسان من رحمته. إنه أخوك وولد معك من نفس الرحم (أى المعمودية). إنه عضو من أعضائك ومدعو لنفس المائدة. لكنك تقول إنه يُهينني كثيرًا. فإن احتملته سيكون أجرك أكبر وأكثر، ولهذا فإنه من العدل أن تترك عنك الغضب، وتدرك أن الشيطان قد أصابه بضربة مميتة (لأنه نجح أن يدفعه لإهانتك).

لذلك لا تُضيف إليه ضربة أخرى، ولا تنطلق من نفس المستوى الذي يتحرك منه، لأنه على قدر ما تكون قائمًا مرتفعًا. يمكنك أن تُنقذه، بينما إذا دمرته ورددت له الإهانة، فمَن سيرفعك فيما بعد؟ فهو الذي جُرح، إن ذاك لن يستطيع أن يُعينك، طالما أنه مطروح أسفل. وهل تستطيع أنت يا مَن سقطت معه، أن تقدم أى مساعدة؟ وكيف ستتمكن أن تُساعد الآخر، طالما أنك لا تستطيع أن تُعين نفسك؟ إذًا قف بشجاعة وضع أمامك الدرع واجذب أخيك من المعركة، إذ هو ميت (روحيًا)، وكن طويل الأناة. ألم يُصيبه الغضب؟ فلا تجرحه أنت أيضًا، بل عليك أن تُخرج منه السهم الذي أصابه. لأنه لو سادت بيننا المحبة، سنصير أصحاءً سريعًا . وعندما نستخدم الأسلحة الواحد ضد الآخر، فلن تكون هناك حاجة لتدخل الشيطان، حتى نهلك. لأن الحرب بصفة

عامة هى شيء مخيف، وبشكل خاص الحروب الأهلية. لكن هذه الحرب (بين الاخوة) هى أكثر فزعًا من الحروب الأهلية، على قدر ما تكون الحقوق المطالب بها كبيرة، كما يظهر من سلوكنا أو كما يظهر من أى شيء له علاقة بهذا السلوك . هذا ما حدث حين قتل قايين أخاه هابيل، وسفك دم مَن كان تربطه به قرابة جسدية، هذا الأمر يعتبر أكثر جُرمًا من قتل الغريب، وبقدر ما تكون القرابة الروحية قوية، على قدر ما يكون الموت مُخيفًا. لأن قايين قد أصاب الجسد، ولكنك أنت قد أعددت السيف لتُصيب به نفس أخيك. ألم يُصِبك الأذى أنت أولاً حين تفعل الشر؟ إن الأذى الحقيقي الذي يُصِب المرء، هو في فعل الشر، وليس في المعاناة من عمل الشر الذي يناله . ولكن انتبه، لقد ذَبَحَ قايين، وذُبِحَ هابيل، فمَن الذي مات؟ هل هو ذاك الذي صرخ بعد الموت (أى هابيل)، لأن الكتاب يقول: " *صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ*"[٥٩]. أم هو قايين الذي ارتعب وخاف أثناء حياته؟ فهو الذي صار بالحقيقة أكثر بؤسًا من كل مائت.

ولأجل هذا يقول ق. ذهبي الفم، أنه من الأفضل أن يقبل المرء الظلم، حتى لو وصل إلى مرحلة الموت. يجب أن تعلم كيف أنه عندما يُظلم المرء، فإن هذا يُعَد أمرًا سيئًا. إن قايين قد ضرب وقتل أخاه، لكن واحدًا تُوّج، والآخر أُدين. لقد قُتِل هابيل، وذُبح بدون وجه حق، ولكنه بموته قد أدان وسبَى، بينما الآخر على الرغم من أنه عاش، إلاّ أنه صمت وشعر بالخجل وسُبِىَ، وأعد لنفسه عكس ما تمنى. لأنه قتل أخاه. إذ رآه محبوبًا، آملاً أن يُبعده عن

[٥٩] تك٤:١٠.

المحبة، لكنه بهذا الفعل جعل المحبة تزداد أكثر، وعندما مات، طلبه الله أكثر قائلاً: " *أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟*"[60]، لأن حسده لم يستطع أن يُطفئ شوق هابيل إلى الله، لكنه قد أشعله بصورة كبيرة، لم يقلل من كرامة أخيه بالذبح، بل عظّمه أكثر. لأن الله كان قد أخضعه قبل ذلك له، ولكن لأنه قتله، فسيُدينه الله، على الرغم من أنه مات (روحيًا). إذًا مَن هو الذي أُدين؟ مَن الذي عَاقَب ومن الذي عُوقِب؟ ومَن نال بكرامة عظيمة من الله، ومَن سُلم لعقاب جديد ومُخيف؟ أنت لم تُخيفه عندما كان حيًا، فهل ستخفيه الآن بعدما مات، لم ترتعب عندما اعتزمت أن تستخدم السيف، والآن سيسود عليك رعب دائم، بعد سفك الدم. وعندما كان حيًا، كان خاضعًا لك ولم تحتمل مثل هذا الأمر. لذلك الآن حتى بعد موته، قد صار سيدًا مخيفًا لك.

فلنفكر في كل هذا، ولنترك الحسد، ولنطفئ الشر ولنحيا بالمحبة بعضنا نحو بعض، حتى نربح الخيرات في هذا الدهر وفي الدهر الآتى.

التبرير والسلام الإلهي

ومن أجل هذا كله، فإن كنَّا قد تبررنا بالإيمان، فلنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح كما يقول الرسول بولس. يتساءل ق. ذهبي الفم، قائلاً: ماذا تعنى عبارة " لنا سلام"؟ ثم يجيب: أن البعض يقولون إن عبارة " لنا سلام" تتعلق بالالتزام بأعمال الناموس، إلاّ أنه يبدو لى وكما هو واضح من الكلام، أنه يتحدث عن كيفية

---

[60] تك٤:٩.

السلوك. لأنه قد تكلَّم كثيرًا عن الإيمان والبر الذي بالأعمال، لذلك نجده هنا يبدأ بالكلام عن السلام. ولكى لا يظن أحد أن هذا الكلام ليس له أهمية، يقول: " لنا سلام"، وهذا يعنى أنه لا ينبغى أن نُخطئ بعد، ولا أن نعود للأمور السابقة، لأننا إن فعلنا هذا نكون مقاومين لمشيئة الله. وكيف نستطيع ألاّ نخطئ أبدًا؟ أُجيب، ألم نحصل على السلام من قبل؟!! لأنه وإن كنّا مسئولين عن هذا القدر الكبير من الخطايا، إلاّ أننا قد تخلّصنا منها كلها بالمسيح، ولهذا بالأولى جدًا الآن سيمكننا بالمسيح، أن نبقى في ذلك الوضع (أى حالة البر) التي كانت لنا في الماضى.

لأن إكتساب السلام الذي لم يكن موجودًا، والاحتفاظ بالسلام الذي أُعطي لنا لا يعتبرا شيئًا واحدًا، لأنه من المؤكد أن إكتسابه هو أكثر صعوبة من الاحتفاظ به. بيد أن ما هو أكثر صعوبة، صار سهلاً وقد تحقق. وبناء على ذلك فإن الأكثر سهولة، سيكون سهلاً أكثر فأكثر بالنسبة لنا لو أننا تبعنا ذاك الذي حقق لنا البر والسلام . لكن يبدو لى هنا أنه لا يقصد فقط الأمر الأسهل، بل أيضًا الأمر المنطقى أو الصحيح، لأنه إن كان المسيح قد صالحنا ونحن بعد أعداء، فمن المنطقى أن نحافظ الآن على استمرارية هذا الصلح، وأيضًا أن ننسب الفضل فيما تم للمسيح، حتى لا يبدو أن أولئك الذين صالحهم مع الآب لازالوا قساة وجاحدين.

إذًا إن كنا ونحن بعيدين قد جعلنا المسيح قريبين، فبالأكثر جدًا سيُثبتنا فيه، إن بقينا بالقرب منه. لكن لاحظ كيف أن الرسول بولس يُشير في كل موضع إلى أمرين، إلى الأمور الخاصة بالله، وتلك الأمور الخاصة بنا. بيد أنه من المؤكد أن الأمور

الخاصة بالله هي متنوعة وكثيرة، لأنه مات لأجلنا وصالحنا، وجعلنا قريبين منه، ووهبنا نعمة لا يُعبر عنها، هذا ما قدّمه هو لنا، أما ما قدمناه نحن، فهو الإيمان فقط، ولهذا قال " بالإيمان إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون". عن أى نعمة يتحدث؟ إنه يتحدث عن نعمة إستحقاق معرفة الله، ونعمة الخلاص من الخداع، ومعرفة الحقيقة جيدًا، ونوال على كل الخيرات بواسطة المعمودية. لقد قادنا نحو البر، لكى نحصل على كل هذه العطايا، ومن المؤكد بالطبع أن كل هذا لم يصر لمجرد الغفران والتخلص من الخطايا فقط، بل لكى نتمتع بامتيازات لا تُحصى. ولم يتوقف عند الوعد بهذه الخيرات، لكنه وعد بخيرات أخرى غير مُعلنة، والتي تفوق كل فكر وكل لغة، ولا نستطيع التعبير عنها.

ولهذا عينه أشار إلى الأمرين. لأنه عندما يتحدث عن "النعمة" فهو يقصد الخيرات الحاضرة التي حصلنا عليها، ولكن عندما يقول: " *ونفتخر على رجاء مجد الله*"، فإنه يكشف عن غنى خيرات الدهر الآتى. وحسنًا قال " *التي نحن فيها مقيمون*". لأن هكذا تكون نعمة الله، لا نهاية لها، ولا تعرف التوقف عند حد معين، لكنها تقود دومًا نحو الأمور الأسمى، الأمر الذي هو خارج قدرات البشر . بمعنى أنه يمكن أن يكتسب شخص ما مبادئ معينة ومجدًا وسلطة، إلاّ أنه لا يستطيع أن يُقيم فيها على الدوام، لأنه سيفقدها سريعًا، حتى لو لم ينزعها منه إنسان، لأن الموت عندما يأتى سينزعها منه على كل حال. بيد أن الخيرات الإلهية لا تخضع لمثل هذه التحولات، فلا يستطيع الإنسان ولا الزمن ولا الظروف العارضة ولا الشيطان نفسه ولا الموت عندما يأتي أن

يُبعدنا عن هذه الخيرات، بل عندما ننتقل من هذا العالم سنملك المزيد من هذه الخيرات وسنتمتع بها أكثر.

ثم يقول: وبناء على ذلك ينبغي ألاّ ينتابك أي شك من جهة خيرات الدهر الآتي، لأنها إستُعلنت بالفعل في الخيرات التي نلناها في هذه الحياة الحاضرة. لذلك قال: " *ونفتخر على رجاء مجد الله*". هذا لكي تعرف ماهية الحالة الروحية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن. لأننا تأكدنا ليس فقط من جهة الخيرات التي أُعطيت لنا، بل أيضًا من جهة الخيرات التي ستُعطي لنا في الدهر الآتى، كما لو كانت قد أُعطيت بالفعل، لأن الإنسان يفتخر بتلك التي أُعطيت بالفعل. إذًا طالما أن الرجاء في خيرات الدهر الآتى هو أمر مؤكد وواضح، تمامًا مثلما تحقق الرجاء في الخيرات التي أُعطيت لنا في الحياة الحاضرة، فلذلك يجب أن نفتخر بهذا الرجاء (أى المتعلق بخيرات الدهر الآتى) بطريقة مشابهة، ولهذا فإنه أطلق كلمة مجد على هذه الخيرات. فإن كانت هذه الخيرات تُساهم في اعلان مجد الله، فمن المؤكد أنها ستتحقق، وإن لم يكن هذا لأجلنا فقط، بل أيضًا لحساب مجد الله . ماذا أقول، هل أن خيرات الدهر الآتى، هى فقط التي تستحق الافتخار؟ بالطبع لا، بل أن الضيقات الحاضرة قادرة أيضًا على أن تجعلنا نفتخر بها ونزهو بسببها.

الرجاء لا يُخزى

ثم يوضح ق. يوحنا ذهبي الفم، مدى عظمة العطايا الإلهية، وكيف أن الله يُعطيها بفيض قائلاً: تأمل إذًا، كم ستكون خيرات الدهر الآتي، عظيمة ومهمة، وذلك عندما نفتخر بتلك الأمور التي تبدو أنها محزنة. لأن عطية الله هى عظيمة ولا يوجد

فيها أى شيء مُحزن. لأن الجهاد فيما يختص بأمور هذا العالم الحاضر، يحمل مشقة وألم وتعب، لكن فيما يختص بالأمور الروحية، لا يحدث نفس الشيء، بل إن الجهاد بالنسبة لنا، ليس أقل بهجة من المكافآت. فالتجارب آنذاك كانت كثيرة، ومع هذا فقد تجلَّى الملكوت بالرجاء الذي فينا، وكان يُنظر للخيرات على رجاء تحقيقها في الدهر الآتي، مع أن الضيقات أيضًا كانت حقيقة واقعة، وهذا ما جعل الضعفاء يتشددون. هكذا يُقدم الرسول بولس فعليًا، المكافآت قبل التتويج، بقوله: " إنه ينبغي أن نفتخر في الضيقات". ومن الملاحظ أنه لم يقل يجب أن تفتخروا، لكنه قال "نفتخر"، مقدمًا النصح لشخصه أيضًا.

ثم بعد ذلك لأن الكلام يبدو أنه غير مُعتاد وغريب على الأذان ـ إذ يجب أن يفتخر كل مَن يُصارع الجوع، والمقيد، والذي يُعذب. وأيضًا مَن يُحتَقَر ويُستهزئ به ـ ولذلك فهو يقدم شرحًا لهذا المفهوم فيما بعد. والأمر المهم هنا هو أن ما يستحق الافتخار ليس هو فقط خيرات الدهر الآتى التي تنتظرنا، بل وخيرات الحياة الحاضرة أيضًا، فالضيقات نفسها هى أمرًا صالح. ولماذا تعتبر أمرًا صالحًا؟ لأنها تُنشيء صبرًا. ولهذا تحديدًا، فبعدما قال " نفتخر في الضيقات"، أضاف السبب (الذي من أجله، نفتخر في الضيقات)، قائلاً: " عالمين أن الضيق يُنشئ صبرًا ".

ثم يقول: انظر إلى إصرار الرسول بولس، فإنه يحوّل كلمته مرة أخرى في الاتجاه الآخر. لأن الضيقات جعلت هؤلاء يتعبون، فعلى الرغم من أنهم كانوا يترجون خيرات الدهر الآتي، إلاّ أنها قادتهم لليأس، فيقول لهم إنه يجب من جهة هذه الضيقات أن

نتحلى بالشجاعة ولا نيأس لأن خيرات الدهر الآتى هي أمر مؤكد.

فالضيقات لا تستطيع أن تَمحي هذا الرجاء، بل على العكس فإنها تُزيده. لأنه من المؤكد أن الضيق له ثمر عظيم، حتى قبل الحصول على خيرات الدهر الآتي، هذا الثمر هو الصبر الذي يجعل مَن يتذوقه إنسانًا كاملاً، بل ويُساهم أيضًا في التطلع نحو خيرات الدهر الآتي، طالما أنه يجعل الرجاء يزدهر داخلنا. لأنه لا يوجد شيئًا يجعلنا نترجى خيرات الدهر الآتي أكثر من الضمير الصالح.

ولا يوجد أحد ممن عاشوا في حياة مستقيمة، يمكن أن يشك في خيرات الدهر الآتي، تمامًا كما أن هؤلاء الذين أهملوا وتهاونوا كثيرًا في حياتهم، إذ قد صاروا مأسورين من جهة ضميرهم الشرير، فإنهم لا يريدون أن تكون هناك دينونة ولا مجازاة. إذًا ماذا يحدث؟ هل ما ننتظره من خيرات يتحقق بالرجاء؟ من المؤكد أنه يتحقق بالرجاء، لكن ليس في الرجاء الإنساني، لأنه رجاء كاذب. وكثيرًا ما تخيب آمال مَن وضع رجائه في إنسان، فقد يحدث أن يفارق الحياة ذاك الذي كان يُنتظر منه تحقيق هذا الرجاء، أو قد يغير رأيه وهو لا يزال على قيد الحياة . إلاّ أن الخيرات التي تنتظرنا ليست هكذا، إذ الرجاء فيها مؤكد وثابت. لأن ذاك الذي وعد هو حي على الدوام، أما من جهتنا نحن الذين سنتمتع بهذه الخيرات، حتى وإن متنا، إلاّ أننا سنقوم مرة أخرى. وبشكل عام لا يوجد شيء يمكن أن يُخزينا، كما لو أننا قد تباهينا بلا داعٍ في أمور لا طائل من ورائها.

إذًا، هكذا يشرح ق. ذهبي الفم، بعدما أزال الرسول بولس كل شك فيما يتعلق بالخيرات الإلهية، كما أوضح في كلامه

السابق، فإنه لم يكتفِ بالحديث عن خيرات الحياة الحاضرة، بل أخذ يتكلّم مرة أخرى عن خيرات الدهر الآتي، لأنه يعرف أن الضعفاء في الإيمان يطلبون أمور الحياة الحاضرة، لكنهم لا يكتفوا بها. ولذلك يؤكد على تحقيق خيرات الدهر الآتي من خلال الخيرات التي أُعطيت في هذه الحياة بالفعل. ولكي لا يقول أحد، ماذا لو أن الله لم يُرد أن يمنحنا هذه الخيرات؟ لأنه من حيث إنه يستطيع وإنه باقٍ، وأنه حي (إلى الأبد)، فهذا نعرفه جميعًا، لكن ما الذي يجعلنا مُتيقنين من أنه يريد أن يهبنا هذه الخيرات؟ نستطيع أن نتيقن من هذا الأمر، من خلال الخيرات التي أُستعلنت لنا بالفعل . وأين أُستعلنت؟ أُستعلنت في المحبة التي أظهرها لنا. وهل ما يقوله يفعله؟ بالطبع لأن هذا ظاهر من خلال وعده بعطية الروح القدس. ولهذا فبعدما قال: " *والرجاء لا يُخزى*" أضاف الدليل على ذلك بقوله: "*لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا*". ولم يقل أُعطيت، لكن "*انسكبت في قلوبنا*". لكي يُظهر فيض هذه المحبة. لأن تلك العطية العظمى التي وهبها ليست هى السماء والأرض والبحر، بل هى أكثر غنى من كل هذه الأمور، إذ جعل من البشر ملائكة، وأولادًا لله، وإخوة للمسيح. وما هى هذه العطية؟ هى عطية الروح القدس. لأنه إن كان لا يشاء أن يهبنا تيجانًا مُنيرة بعد كل الأتعاب، لما كان قد أعطانا خيرات وفيرة قبل هذه الأتعاب. والآن هو يظهر دفء محبته في الحياة الحاضرة، لأنه لم يكرمنا رويدًا رويدًا، وقليلاً قليلاً، لكنه سكب كل الخيرات التي صارت لنا قبل أن نجتاز الجهاد الروحي.

وبناء على ذلك حتى وإن كنت غير مستحق، لا تيأس، لأن

لديك مُدافعًا عظيمًا. والذي هو محبة الديان. ولهذا بعدما قال: "*الرجاء لا يخزى*". نسب كل شيء لمحبة الله، وليس لإمكانيات خاصة بنا. ولهذا يقول: " فَإِذًا كَمَا بِخَطِيَّةٍ وَاحِدَةٍ صَارَ الْحُكْمُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِلدَّيْنُونَةِ، هكَذَا بِبِرّ وَاحِدٍ صَارَتِ الْهِبَةُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، لِتَبْرِيرِ الْحَيَاةِ"[٦١]. ويستمر في محاولته هذه للتأكيد على هذه الرؤية مرة أخرى، فيقول: " لأَنَّهُ كَمَا بِمَعْصِيَةِ الإِنْسَانِ الْوَاحِدِ جُعِلَ الْكَثِيرُونَ خُطَاةً، هكَذَا أَيْضًا بِإِطَاعَةِ الْوَاحِدِ سَيُجْعَلُ الْكَثِيرُونَ أَبْرَارًا"[٦٢].

فيض النعمة

يقول ق. ذهبي الفم إن ما يقوله القديس بولس هنا ـ بحسب الظاهر ـ يخلق مشكلة كبيرة، إلاّ أنه إذا انتبه المرء بدقة لما يقوله، فإن هذه المشكلة ستُحَل بسهولة . وما هى هذه المشكلة؟ هى أنه قال " بمعصية الإنسان الواحد جُعل الكثيرون خطاة ". لأنه أن يكون ذاك (أى آدم) قد أخطأ وصار فانيًا، وأن كل مَن انحدر منه قد أخطأوا وصاروا فانيين، فهذا لا يُعَد أمرًا غير طبيعى على الإطلاق، ولكن أن يصير آخر (المسيح) خطية بسبب معصية ذاك (آدم)، فأى علاقة طبيعية يمكن أن تقوم هنا؟ لأن هكذا سيُعتَبر هذا الإنسان خاطئًا، دون أن يكون مسئولاً عن الحكم، طالما أنه لم يَصِر من ذاته خاطئًا.

إذًا ماذا تعنى هنا كلمة "خطاة"؟ **من ناحيتى يبدو لى أنهم تحت حكم الدينونة ومحكوم عليهم بالموت.** ومن حيث أنه بموت آدم قد

---

[٦١] رو٥:١٨.

[٦٢] رو٥:١٩.

صرنا جميعًا فانيين، فهذا قد بيّنه الرسول بولس بوضوح وبطرق كثيرة، لكن السؤال المطروح: هو لأى سبب حدث هذا (أي صار الموت إلى جميع الناس)؟ وهنا نجد أن القديس بولس لم يُشِر إليه بعد، لأن هذا لم يكن ليُعينه في مسعاه، لأن المعركة كانت ضد اليهودي الذي كان تنتابه الشكوك، وكان يسخر من موضوع البر بالواحد. **ولهذا بعدما أظهر كيف أن بخطية الواحد قد صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، لم يقل لماذا حدث هذا، لم يتكلم عنه بعد، لأنه كان يتجنب الأمور غير الجوهرية، ويهتم فقط بالأمور الضرورية.** لأن ناموس الأعمال كان يُلزم اليهودي بالأكثر أن يتكلم عن (البر بالأعمال)، لا أن يتكلم عن بر المسيح. ولذلك فقد ترك المشكلة بلا حل. لكن لو أن أحدكم طلب أن يعرف السبب فسنتكلم عن هذا، بمعنى أننا لم نُضار مطلقًا من أن الموت قد ملك على الجميع، بل إننا قد ربحنا، بكوننا قد صرنا فانيين، **أولاً** لأنه لو كان لنا جسدًا غير قابل للموت، فإن ذلك سيكون دافع للاستمرار في ارتكاب الخطية، **ثانيًا** لكى تكون لدينا دوافع غير محدودة في جهادنا لتحقيق التقوى.

لأنه بالحقيقة عندما يكون الموت حاضرًا، وعندما ننتظره، فإنه يُقنعنا أن نكون متواضعين، ومُتعقلين، وبسطاء، وأن نتخلص من كل شر. ومع هذا فمن الأفضل أن نقول أولاً أننا ربحنا بالموت خيرات أخرى وفيرة، لأنه من هنا أُستعلنت أكاليل الشهداء ومكافآت الرسل. هكذا تبرر هابيل، وهكذا تبرّر إبراهيم الذي قدّم ابنه ذبيحة، وهكذا أيضًا تبرّر يوحنا الذي مات لأجل المسيح، وأيضًا الثلاثة فتية، كما تبرّر دانيال. لأنه لو أردنا (البر)، فلن يستطيع الموت ولا الشيطان نفسه أن يُسبب لنا ضررًا أو أذى. وفوق

كل هذا، فإننا نستطيع القول بأن الأبدية تنتظرنا، وطالما أننا قد نلنا تعليمًا أو إرشادًا لزمن قصير، سنتمتع بخيرات الدهر الآتي بدون خوف، كما لو أنه قد تم إعدادنا في مدرسة الحياة الحاضرة، من خلال المرض والضيقات والتجارب والآلام، ومن خلال الأمور الأخرى التي تُعَد مُحزنة ومؤسفة، لكى نكون مستعدين ومهيئين لاستقبال خيرات الدهر الآتي.

ثم يوضح ق. ذهبي الفم، عدم نفع الناموس في خلاص الإنسان، قائلاً: بعدما بيّن الرسول بولس، كيف أنه بخطية آدم صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، بينما بعطية المسيح صارت الهبة لجميع الناس لتبرير الحياة، وأن جميع الناس قد خلصوا وأُنقذوا من الدينونة، نجده ينشغل فيما بعد بموضوع الناموس مُقللاً مرة أخرى من وقع تأثيره. إذ أن الناموس لم ينفع ولم يُعين الإنسان في خلاصه، بل وجدنا أنه عندما أُعطيَ الناموس، ازداد الضعف. وهنا فإن تعبير "لكى"، لا يعني السبب، لكن يعنى النتيجة. بمعنى أن الناموس لم يُعطَ لكي تزداد الخطية، لكن لكي تقل وتُمحى، لكن العكس قد حدث، لا بسبب طبيعة الناموس، بل بسبب لا مبالاة أولئك الذين أخذوا الناموس . ولكن لماذا لم يقل في الآية أن الناموس أُعطيَ لكنه قال "*أما الناموس فدخل*"؟ ذلك لكي يُظهر أن الاحتياج له **هو أمر مؤقت وليس أمرًا أساسى أو هام**، وهذا ما نجده في رسالته إلى أهل غلاطية عندما أعلن عن نفس الشيء، ولكن بأسلوب آخر بقوله: "*وَلَكِنْ قَبْلَمَا جَاءَ الإِيمَانُ كُنَّا مَحْرُوسِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ، مُغْلَقًا عَلَيْنَا إِلَى الإِيمَانِ الْعَتِيدِ أَنْ يُعْلَنَ*"[٦٣].

---

[٦٣] غل٣:٢٣.

وبناء على ذلك فإن إهتمامه بحفظ الرعية لم يكن لأجل ذاته، بل لأجل الآخرين. لأن بعض اليهود كانوا بلا حس، صغار النفوس، وبلا رجاء من جهة نفس العطايا، ولهذا السبب أُعطيَ الناموس، لكي يشهد على هؤلاء بالأكثر، ولكي يُعلّمهم بكل وضوح في أى حالة هم يحيون، ويوسع من مساحة الإدانة (أي أن الخطية ازدادت بسبب لا مبالاة اليهود)، حتى يجعلهم أكثر إدراكًا. ولكن لا تخف، لأن هذا لم يحدث بهدف أن تصير العقوبة أكبر، بل لكى تظهر النعمة أكثر. ولهذا أضاف: "***ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جدًا***". ولم يقل ازدادت النعمة فقط، لكن " *ازدادت النعمة جدًا* ". لأنه لم يخلّصنا من الجحيم فقط، لكن ومن الخطايا أيضًا، ووهبنا الحياة وتلك الأمور الأخرى التي تكلمنا عنها مرات عديدة. تمامًا كما لو أن شخصًا كان مريضًا بارتفاع في درجة الحرارة، وأتي آخر ولم يخلصه فقط من المرض، لكن جعله في وضع بهى وقوى ومُمجد. وأيضًا لو كان شخص جائعًا ثم أشبعه آخر وليس هذا فقط، بل جعله مالكًا لأموال كثيرة، ثم قاده إلى سلطة كبيرة.

ثم يتساءل، وكيف يقول كثرت الخطية؟ **قال هذا لأن الناموس أعطى وصايا غير محدودة، ولأنهم خالفوها كلها، فقد كثرت الخطية. أرأيت مدى التباعد بين النعمة والناموس؟ لأن الناموس صار سببًا للوم والإدانة، بينما النعمة صارت سببًا لهبات وفيرة جدًا.**

وبعدما تكلم عن السخاء في العطايا التي لا يُعبّر عنها، تكلّم مرة أخرى عن النعمة، عن سبب الموت وعن الحياة. إذًا ما هو سبب

الموت؟ سبب الموت هو الخطية. ولهذا قال: " حَتَّى كَمَا مَلَكَتِ الْخَطِيَّةُ فِي الْمَوْتِ، هكَذَا تَمْلِكُ النِّعْمَةُ بِالْبِرِّ، لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا "[٦٤]

قال هذا لكي يُقدّم الخطية كما لو كانت ملكًا، والموت مثل جندى يخضع لأوامره ويأخذ مؤونته منه. وبناء على ذلك فلو أن الخطية قدمت مؤونة للموت، فمن الواضح جدًا أن **البر** الذي لاشى الخطية، والذي أتى بالنعمة، لم يجرد الموت فقط من أسلحته، بل وقضى عليه أيضًا، وأنهى على كل مملكة الخطية تمامًا، وذلك على قدر عظمة **البر** مقارنة بالخطية. وهذا البر قد أتي لا بمساعدة إنسان أو ملاك، لكنه أتى من خلال معونة الله ونعمته، حتى يقود حياتنا إلى الوضع الأسمى وإلى خيرات لا تُحصى، خاصةً وأن حياة الدهر الآتى هي بلا نهاية، لكي تعرف من الآن مدى عظمة هذه الحياة. لأن الخطية انتزعتنا خارج الحياة الحاضرة، لكن عندما أتت النعمة لم تهبنا فقط الحياة الحاضرة، بل وهبتنا أيضًا الحياة الأبدية. كل هذا قد منحنا إياه المسيح . إذًا لا تشك في الحياة الأبدية، طالما أنك **تبررت**، لأن **البر** هو أسمى من الحياة، إذ أنه هو الذي يلد الحياة الحقيقية.

عطية البر

ثم يتحدث الرسول بولس عن البر بإعتباره أصل أو جذر الحياة، وأن هناك هبات كثيرة قد مُنحت بعطية البر، فيقول: "وَلَيْسَ كَمَا بِوَاحِدٍ قَدْ أَخْطَأَ هكَذَا الْعَطِيَّةُ. لأَنَّ الْحُكْمَ مِنْ وَاحِدٍ لِلدَّيْنُونَةِ، وَأَمَّا الْهِبَةُ فَمِنْ جَرَّى خَطَايَا كَثِيرَةٍ لِلتَّبْرِيرِ."[٦٥].

---

[٦٤] رو ٥:٢١.

[٦٥] رو ٥:١٦.

ماذا يعني هذا الكلام؟ يعني أن الموت والدينونة يمكن أن تسببهما خطية واحدة، بينما نجد أن النعمة قادرة على أن تمحو ليس فقط خطية واحدة، بل وتلك الخطايا التي ظهرت بعد الخطية الأولى. ولكى لا تكون عبارات مثل (كما) و(هكذا) توازي بين الخير والشر في المستوى، ولكى لا تعتقد عندما تسمع اسم آدم أن ما مُحَي هو فقط الخطية الأولى التي اقترفها آدم، فإن الرسول بولس يقول إنه قد مُحيت خطايا كثيرة. وما الذي يوضح ذلك؟ الذي يوضحه هو أنه بعد الخطايا الكثيرة التي اقتُرفت فيما بعد أي بعد الخطية الأولى التي سقط فيها آدم في الفردوس. تنتهي الأمر إلى قبول عطية التبرير، وحيث يوجد بر فحتمًا ستتبعه حياة وخيرات لا تُحصى، تمامًا كما يحدث في حالة الخطية فحيثما توجد خطية يتبعها موت، **لأن البر هو شيء أكثر من الحياة، إذ هو جذر أو أصل الحياة.**

إذًا فمن حيث إن هناك هبات كثيرة قد مُنحت بعطية البر وأن الخطية الأولى ليست هى فقط التي مُحيت، بل وكل الخطايا الأخرى، فهذا قد برهن عليه الرسول بولس بقوله: "*وأما الهبة فمن جرى خطايا كثيرة للتبرير*". وبذلك يكون قد برهن بالضرورة على أن الموت قد قُضيَ عليه نهائيًا. ولأنه قال بعد ذلك إن الثاني (أي آدم الثاني) أعظم من الأول (أي آدم الأول)، فهناك احتياج أن يبرهن على هذا مرة أخرى . فطالما أن بخطية إنسان واحد اُقتيد الجميع إلى الموت، فبالأولى كثيرًا ستستطيع نعمة الواحد (أي نعمة المسيح) أن تُخلّص الكثيرين . ثم دلل على أنه ليست الخطية الأولى فقط هى التي مُحيّت بواسطة النعمة، بل جميع الخطايا الأخرى، ولم تُمحَى الخطايا فقط، بل أُعطي البر أيضًا. وعلى قدر ما تسبّبَ

آدم في الأضرار، على قدر ما كانت عطايا المسيح وفيرة ولا تحصى . ومع أنه أشار إلى كل هذه الأمور، إلاّ أنه يحتاج هنا أيضًا لتقديم برهان أوضح. وهذا قد أشار إليه، بقوله: " لأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِخَطِيَّةِ الْوَاحِدِ قَدْ مَلَكَ الْمَوْتُ بِالْوَاحِدِ، فَبِالأَوْلَى كَثِيرًا الَّذِينَ يَنَالُونَ فَيْضَ النِّعْمَةِ وَعَطِيَّةَ الْبِرِّ، سَيَمْلِكُونَ فِي الْحَيَاةِ بِالْوَاحِدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ!"[66].

ما يقوله يعني الآتي: بماذا تسلّح الموت ضد البشرية؟ تسلّح بأن إنسانًا واحد فقط أكل من الشجرة، فإذا كانت هذه السيادة الكبيرة بسبب خطية واحدة، قد أدت إلى الموت، فكيف يصبح من الممكن أن يكون هناك أناس تحت حكم الموت، وقد حصلوا على نعمة وبر أعظم بكثير من الخطية الأولى، الأمر الذي جعله لا يقول فقط "نعمة"، بل "فيض النعمة"؟ لأننا لم نحصل على قدر بسيط من النعمة يكفى فقط لمحو الخطية، بل حصلنا على فيض النعمة. لأنه بالحقيقة قد أُنقِذنا من الجحيم، وابتعدنا عن الشر، وولدنا مرة أخرى من الله. بل وأقامنا، مادام أن إنساننا العتيق قد دُفن، وَخلُصنا، وتبررنا، وصرنا أبناءً، وتقدّسنا وأصبحنا إخوة للابن الوحيد الجنس، وورثة معه، واتحدنا معه في جسد واحد، وإلى هذا الجسد نحن ننتمي، وكما أن الجسد متحد بالرأس، هكذا اتحدنا نحن أيضًا به (أي بالابن).

كل هذا دعاه الرسول بولس " فيض النعمة " مُظهرًا هكذا أننا لم نحصل فقط على ما يُضمّد الجرح، لكن حصلنا على شفاء وجمال وكرامة، وعلى رُتب تفوق كثيرًا طبيعتنا الفانية. وكل

---

[66] رو ٥:١٧.

أمر من هذه الأمور، كان كافيًا وحده أن يُبطل الموت، إلاّ أنه عندما يتضح أن كل هذه الأمور قد ساعدت معًا في إبطاله، فلن يكون له أثر بعد ذلك، ولن يكون ممكنًا أن يخيم بظلاله حولنا، طالما أنه قد انتهى كلية. تمامًا كما لو أن شخصًا قد وضع آخر في السجن لأنه مديون له بعشرة فلسات، وليس هذا فقط، بل ووضع في السجن أيضًا زوجته وأولاده وخدامه، بسبب هذا الدين، ثم أتى شخص آخر ودفع ليس فقط عشرة فلسات، بل ومنح آلاف العملات الذهبية، وقاد السجين إلى الحاشية الملكية وإلى عرش السلطة العليا، وجعله شريكًا في الكرامة السامية وفي الأمور الأخرى المشرقة، فيصير من غير الممكن أن يتذكر بعد ذلك الفلسات التي اقترضها . هذا ما حدث لنا، لأن المسيح دفع أكثر جدًا من قيمة الدين الذي كان علينا. وما دفعه كان عظيمًا جدًا، بقدر اتساع البحر إذا ما قُورن بنقطة ماء صغيرة . إذًا ينبغي عليك أيها الإنسان ألا تشك في شيء عندما ترى كل هذا الغنى الوفير من الخيرات، ولا تفحص كيف انطفأت شرارة الموت والخطية، عندما غمر هذا البحر الكبير من الهبات الوفيرة هذه الشرارة المتقدة. وهذا ما أشار إليه القديس بولس قائلاً: " *الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة* ".

ولأنه قد برهن على هذا بكل وضوح (أي أن أولئك الذين ينالون فيض النعمة سيملكون في الحياة)، فإنه يُقدم نفس الرؤية السابقة مرة أخرى مؤكدًا عليها من خلال التكرار، بقوله إن كان بخطية واحد قد أُدين الكثيرون، فقد تبرروا للحياة بالواحد.

الحياة مع المسيح

ولكي يوضح الرسول بولس هذا الأمر، يشير إلي الموت في المعمودية، لأن هذا سيقود إلي الحياة مع المسيح. هكذا يقول: "لأَنَّ الَّذِي مَاتَ قَدْ تَبَرَّأَ مِنَ الْخَطِيَّةِ"[67]. هذا ما يقوله لكل إنسان، لأنه كما أن المائت قد تحرر تمامًا من إمكانية أن يُخطئ، طالما أنه مائت، هكذا أيضًا الذي تعمّد، فلأنه مات مرة واحدة في المعمودية، ينبغى أن يبقى على الدوام مائتًا بالنسبة للخطية. إذًا فإن كنت قد مت في المعمودية، فلتبقى مائتًا على الدوام، لأن هذه هى الحقيقة، أن كل مائت لا يستطيع بعد أن يُخطئ. بيد أنك لو أخطأت فستكون بذلك قد احتقرت عطية الله. وبعدما طلب منا أن نسلك بهذا القدر الكبير من الحكمة، أوضح على الفور قيمة المكافأة قائلاً: "فَإِنْ كُنَّا قَدْ مُتْنَا مَعَ الْمَسِيحِ، نُؤْمِنُ أَنَّنَا سَنَحْيَا أَيْضًا مَعَهُ"[68]. إن كان هذا في حد ذاته يُمثل كرامة كبيرة قبل نوال المكافأة، بمعنى أنك قد صرت شريكًا مع الرب، إلا أنه يعطيك مكافأة أخرى. وما هى هذه المكافأة؟ هى الحياة الأبدية. لأنه يقول "*نؤمن أننا سنحيا أيضًا معه*".

هكذا يفسر ق. ذهبي الفم، ما أورده الرسول بولس بشأن موت المسيح، بأن في موته، موت للموت، ومحو للخطية، فيقول: لاحظ محاولة الرسول بولس لإثبات هذا أيضًا من خلال هذه المفارقة. لأنه كان طبيعيًا أن يُثير البعض لغطًا حول الصليب والموت، فبيّن كيف أن لهذا السبب بالتحديد، ينبغي بالأحرى أن تكون لدينا الشجاعة حتى لا تعتقد أن المسيح فانٍ، بل يبقى حيًا إلى الأبد. لأن

---

[67] رو ٦:٧.

[68] رو ٦:٨.

موته قد صار موتًا للموت. ولأنه مات، فلهذا لن يموت (مرة ثانية). "لأَنَّ الْمَوْتَ الَّذِي مَاتَهُ قَدْ مَاتَهُ لِلْخَطِيَّةِ مَرَّةً وَاحِدَةً"[69].

وهو يعني بهذا، أنه لم يكن مستحقًا الموت، لكنه مات لأجل خطايانا، لكى يمحي الخطية ويقطع عصبها وكل قوتها، لهذا مات . أرأيت كيف أنه أرهب الموت حيث إنه لن يموت مرة ثانية، وحيث إنه لا توجد معمودية ثانية، فينبغى عليك أن تموت من جهة الخطية. إذًا فهو يقول كل هذا بهدف أن يقاوم مَن يقول "*لنفعل السيئات لكى تأتى الخيرات*" وأيضًا يقول "*أنبقى في الخطية لكى تكثر النعمة*". إذًا هو يذكر كل هذا، لكى يجتث مثل هذا الفكر من جذوره.

ثم يُكمل " والحياة التي يحياها فيحياها لله"، أى أنه يتحدث عن عدم الفناء، وأن الموت لن يسود بعد. لأنه إن كان الموت الأول قد جازه دون أن يكون مُستحقًا له، إذ إنه جازه لأجل خطـ الآخرين، فبالأحرى كثيرًا أنه لن يموت الآن مادام أنه قد أبطل الموت. هذا ما قاله في الرسالة إلى العبرانيين: "*فَإِذْ ذَاكَ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَأَلَّمَ مِرَارًا كَثِيرَةً مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، وَلكِنَّهُ الآنَ قَدْ أُظْهِرَ مَرَّةً عِنْدَ انْقِضَاءِ الدُّهُورِ لِيُبْطِلَ الْخَطِيَّةَ بِذَبِيحَةِ نَفْسِهِ. وَكَمَا وُضِعَ لِلنَّاسِ أَنْ يَمُوتُوا مَرَّةً ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ الدَّيْنُونَةُ، هكَذَا الْمَسِيحُ أَيْضًا، بَعْدَمَا قُدِّمَ مَرَّةً لِكَيْ يَحْمِلَ خَطَايَا كَثِيرِينَ، سَيَظْهَرُ ثَانِيَةً بِلاَ خَطِيَّةٍ لِلْخَلاَصِ لِلَّذِينَ يَنْتَظِرُونَهُ*"[70]. لقد أوضح قوة الحياة التي هى بحسب مشيئة الله، وفي نفس الوقت أظهر قوة الخطية، وقوة الحياة التي تُستعلن فينا بحسب مشيئة الله، لأنه لن يسود عليه

---

[69] رو٦:١٠.

[70] عب٩:٢٦-٢٨.

الموت بعد، بينما ندرك مدى قوة الخطية من حيث أنها قد جعلت الذي هو بلا خطية يموت (من أجل خطايا البشر)، فكيف لا تُهلك أولئك الذين هم مسئولون عن إرتكاب الخطايا؟

بعد ذلك ـ ولأنه تكلم عن الحياة في المسيح ـ وحتى لا يقول أحد وما علاقة هذا الكلام بنا نحن، فقد أضاف: "كَذلِكَ أَنْتُمْ أَيْضًا احْسِبُوا أَنْفُسَكُمْ أَمْوَاتًا عَنِ الْخَطِيَّةِ، وَلكِنْ أَحْيَاءً لِلّهِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا"[71].

ثم يؤكد ق. ذهبي الفم على حقيقة أننا متنا عن الخطية، مُستندًا لقول الرسول بولس "أحسبوا"، إذ يقول: وحسنًا قال "احسبوا" لأنه بواسطة اللغة الوصفية، لا يمكننا عرض حقيقة أننا متنا، لذلك استخدم هذه الكلمة "احسبوا"، للتأكيد على حقيقة هامة وهى (أننا بالفعل قد متنا عن الخطية). وماذا يعنى بكلمة "أحسبوا"؟ يعنى أننا "*أمواتًا عن الخطية لكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا*". ومَن يحيا هكذا سيتمكن من الانتصار على الخطايا، لأن يسوع ذاته هو المُعِين له. وهذا معنى عبارة " في المسيح". فإن كان قد أقامهم عندما كانوا أمواتًا، فبالأكثر جدًا سيستطيع أن يحفظهم أحياءًا.

بعد ذلك أظهر أن الخطية لا تملك علينا بالعنف والإجبار، بل بملء إرادتنا، ولم يقل ينبغي ألا تستبد بكم الخطية، الأمر الذي يُدلل على أنها بمثابة قوة متجبرة، لكنه قال: "*لا تملكن الخطية*". لأنه بالحقيقة سيكون أمرًا غير معقول وغير مقبول أن تسود الخطية عليهم كأنها ملكة ـ بينما هم ينقادون نحو ملكوت

---

[71] رو٦: ١١.

السموات، ومدعون أن يملكوا مع المسيح ـ يُفضلون أن يصيروا أسرى للخطية. تمامًا كما أنه من غير المعقول أيضًا لو أن شخصًا ألقى تاج الملك من على رأسه، ويريد أن يصير عبدًا لامرأة بها شيطان تتجول متسولة وترتدى ملابس مُمزقة.

ولأن الانتصار على الخطية يبدو لنا أمرًا صعبًا، فقد أظهره على أنه أمرًا سهلاً، وأثنى على الجهاد الذي يُبذل، قائلاً: "*في جسدكم المائت*". ولهذا أوضح أن المتاعب ستكون وقتية وتنتهي سريعًا. لكنه يذكّرنا بالشرور السابقة وبالجذور التي أنبتت موتًا، والتي إذا انقاد الجسد إليها لصار جسدًا مائتًا، لأنه لم يكن مائتًا منذ بدء خلقته. بيد أنك من الممكن أيضًا ألاّ تُخطئ مع أنك تحمل جسدًا قابلاً للموت. أرأيت مدى فيض نعمة المسيح؟ يا لها من مفارقة عجيبة، لأن آدم على الرغم من أنه لم يكن بعد حاملا لجسد فاسد، إلاّ أنه سقط، بينما أنت على الرغم من أنك قد أخذت جسدًا قابلاً للموت، إلاّ أنه بإمكانك أن تُتوج . وكيف تملك الخطية؟ لا تملك من خلال قوتها، بل من خلال لامبالاتك أنت. ولهذا بعدما قال: "لا تملكن"، يوضح طريقة هذا التملك، بقوله: "*لكى تطيعوها في شهواته (أي شهوات الجسد)*". لأنه ليس هو شيئًا يدعو للكرامة أن ننهزم باختيارنا أمام شهوات الجسد، بل يُعَد عبودية أسوأ واحتقار أكبر، لأن الجسد عندما يفعل كل ما يريده، يكون قد فقد الحرية، لكنه يقدر أن يتحكم في رغباته، وعندئذٍ يصون قيمته وكرامته بشكل جوهرى.

التحرر من الخطية

لذلك فقد نصحنا الرسول بولس، كما يقول ق. يوحنا ذهبي الفم، بأن لا نقدم أعضاءنا آلات إثم للخطية، بل آلات بر الله. وبناءً على ذلك فإن الجسد يوجد بين حالة الاثم والبر، مثلما يحدث بالنسبة للآلات (هناك آلات إثم وآلات بر)، وإرتكاب الاثم أو ممارسة البر، يتوقف على مَن يستخدم الآلات. كما يحدث مع الجندي الذي يحارب من أجل وطنه، والسارق الذي يتسلح ليهاجم المواطنين، الاثنان يتحصنان بنفس الأسلحة. فالجريمة ليست عملاً يتعلق بنوع السلاح المستخدم، بل هى مسئولية أولئك الذين يستخدمون هذه الأسلحة، لكى يفعلوا الشر. **وهذا يمكن أن نقوله بالطبع في حالة الجسد، حيث يصير فعل الاثم أو فعل البر، رهنًا بموقف النفس، وهذا ليس له علاقة بطبيعتها. لأن العين إذا نظرت نظرة غير بريئة للجمال، صارت آلة للاثم، لا بحسب طبيعتها أو عملها، لأن عمل العين هو أن تنظر، لكن هذا النظر لا يكون للشر، ولكن إذا نظرت العين نظرة غير نقية، فسيكون ذلك راجعًا للفكر الخبيث الذي أمر بهذا . بيد أنك لو استطعت أن تضبط العين، فسيصير الجسد آلة للبر. وهذا ينطبق على اللسان وعلى الأيدى، وعلى جميع الأعضاء الأخرى. وحسنًا يدعو الرسول بولس الخطية إثمًا. لأن المرء عندما يخطئ، إما أن يؤثم نفسه أو يؤثم قريبه، ومن الأفضل أن نقول إنه يؤثم نفسه قبل قريبه.**

إذًا بعدما نصحهم بعدم ممارسة الشر، بدأ يقودهم نحو ممارسة الفضيلة قائلاً: "بل قدموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات". لاحظ كيف أنه يحثهم على حياة البَر بمسميات بسيطة، فهو يشير في

الفقرة السابقة إلى الخطية، بينما يُشير هنا إلى الله. لأنه بعدما أوضح الفرق الضخم بين أولئك الذين يملكون (في ملكوت الله)، وبين مَن هم عبيدًا للخطية، نجده لا يتسامح مع المؤمن الذي ترك الله وأراد أن يخضع لسلطان الخطية . وليس هذا فقط، لكنه يوضح هذا الأمر بما سيحدث في المستقبل قائلاً: " *كأحياء من الأموات*". لأنه بهذا الكلام يُبيّن مدى بشاعة الخطية، ومدى غنى عطية الله. فلتفكروا في حقيقة ذواتكم، وكيف صرتم. مَن أنتم؟ أنتم أموات، وهذا المصير المفقود، لا يمكن لشيء أن يُصلحه، لأنه لا يوجد أحد مهما كانت مقدرته، يستطيع أن يُعينكم. وأتساءل كيف صرتم بين أولئك الأموات الذين أنتم منهم؟ صرتم أُناسًا ترغبون في الحياة الأبدية. وأيضًا بمعونة مَن صرتم (أحياءا من الأموات)؟ بمعونة الله القادر على كل شيء. وبناء على ذلك فمن العدل أن تخضعوا لأوامره برغبتكم الكاملة، وهذا بالطبع يليق بأناس صاروا أحياءًا بعد أن كانوا أمواتًا.

ثم يقول: " **وأعضاءكم آلات بر**" ولذلك فإن الجسد ليس شرًا، طالما أنه من الممكن أن يصير آلة بر. لكن قوله بأنه آلة، فهذا يُبيّن أن هناك حربًا مخيفة تواجهنا. ولهذا فإن الأمر ـ بالإضافة لضرورة تسلحنا القوى ـ يحتاج إلى إرادة شجاعة، وأن نعرف كل ما يتعلق بهذه الحروب بشكل جيد، بالطبع وقبل كل شيء يجب أن نعرف القائد. بالنسبة لهذا القائد هو حاضر ومستعد على الدوام للمساعدة، ولا يستطيع أحد أن يسود عليه، ودومًا ما يُعِد لنا أسلحة قوية. بيد أن الأمر يحتاج فيما بعد إلى إرادة تستخدم هذه الأسلحة كما ينبغي، وأن تطيع أوامر القائد، وأن تحمل السلاح

من أجل خلاص أو حماية الوطن (أى النفس).

فإن كانت الخطية لن تسودنا بعد، فلماذا يأمرنا أو يوصينا بهذه الأمور الكثيرة قائلاً: " *لا تملكن الخطية في جسدكم المائت*" و"*لا تقدموا أعضاءكم آلات اثم للخطية*" ماذا يعنى بهذا الكلام؟ إنه يُلقي هنا حديثًا كمَن يلقى بذرة، كمقدمة لما سيقوله فيما بعد، ويُمهد لذلك كثيرًا. وما هو هذا الحديث؟ كان من السهل قبل مجيء المسيح أن تسود الخطية على جسدنا. بل وبعد الموت كان ينتظرنا الكثير من العذابات. ولهذا السبب تحديدًا لم يكن الطريق إلى **البر** سهلاً أو مريحًا. لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطيَ لكى يساعدنا، ولا المعمودية التي كان من الممكن أن تُميت الجسد مع شهواته . فقد كان (الجسد) يركض مثل جواد غير مُروض، وكثيرًا ما كان يرتكب الزلات في الوقت الذي كان فيه الناموس يوصي بتلك الأمور التي ينبغي فعلها، وتلك التي لا ينبغي فعلها، لكنه لم يُقدم لأولئك الذين يجاهدون أكثر من مجرد نصيحة، بالكلام فقط.

بعد ذلك، بدأ ق. ذهبي الفم يشرح قصد الرسول بولس في الآيات اللاحقة، على أساس أنه أراد أن يعقد مقارنةً بين المعمودية والناموس، فيقول: لكن عندما أتى المسيح صار الجهاد فيما بعد أكثر سهولة. ولذلك فإن تجارب أكبر تواجهنا، ذلك لأننا أخذنا معونة أكبر. ومن أجل هذا قال المسيح له المجد: " *إِنْ لَمْ يَزِدْ بِرُّكُمْ عَلَى الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ*"[72]. وهذا ما يقوله بكل وضوح في الآيات اللاحقة، بينما هنا هو يُشير إليه

---

[72] مت٥: ٢٠.

بكلام مختصر، مظهرًا كيف أنه إن لم نتضع للغاية، فإن الخطية ستنتصر علينا. لأنه لا يوجد الآن الناموس الذي يحث على ممارسة الفضيلة فقط، لكن النعمة التي تصفح عن الأمور السالفة، والتي تؤمّن الأمور المستقبلية. لأن الناموس كان يَعِد بالتيجان بعد اجتياز الأتعاب، بينما النعمة توّجت أولاً، ثم بعد ذلك دعت إلى الجهاد الروحي. يبدو لي أنه لا يُشير إلى كل ما يتعلق بحياة المؤمن، لكنه يعقد مقارنة بين المعمودية والناموس، الأمر الذي يقوله في موضع آخر إن "*الْحَرْفَ يَقْتُلُ وَلكِنَّ الرُّوحَ يُحْيِي*"[73]. لأن الناموس يُدين التعدي، بينما النعمة تُزيل التعدي. تمامًا كما أن الناموس يُدين الخطية، فإن النعمة تصفح وتخلّصك من سلطان الخطية. وبناء على ذلك فأنت مُتحرر من طغيان الخطية بشكل مضاعف، من حيث أنك تحررت من الخضوع للناموس. وأنت تمتعت بالنعمة.

العبودية للبر

ثم تطرّق إلى أن العبودية للبر، تقود دومًا إلى الحياة، قائلاً: بأن الإنسان هو عبد لمن يُطيعه، إما للخطية التي تقود إلي الموت، أو الطاعة للبر الذي يقود إلي الحياة. لم يُشر بعد إلى جهنم ولا إلى ذلك الجحيم الكبير بل إلى العار الذي يظهر في هذه الحياة، عندما تصيرون عبيدًا، وعبيدًا بكامل إرادتكم، وعبيدًا للخطية، عندما يكون أجركم هو الموت مرة أخرى. وإن كانت الخطية قد سبّبت موت الجسد قبل نوال المعمودية، واحتاج الجرح لهذا القدر الكبير من العلاج، حتى أن سيد الكل ينزل من السماء ويموت،

---

[73] ٢كو٣:٦.

فينتهى الشر، فإنك تُلقي بنفسك في الدناءة إذا استسلمت للخطية بكامل إرادتك بعد نوال الحرية. وهذه العطية العظيمة. وإني أتساءل مندهشًا: ما الذي لم يفعله الله لك؟

إذًا لا تركض نحو هذا الهلاك الكبير، ولا تُسلّم نفسك للخطية بإرادتك. لأنه مرات كثيرة قد يحدث في الحروب أن يستسلم الجنود، ولكن دون إرادتهم، إلا أنك هنا إذا لم تتقدم بنفسك نحو معسكر العدو (أي معسكر الشيطان)، فلن ينتصر عليك أحد. وبعدما قال لهم ما ينبغي فعله، يخيفهم من المجازاة ويذكر الأمرين، **البر والموت**. ليس الموت الجسدي، ولكنه موت أكثر رعبًا من هذا الموت (إنه الموت الروحي). لأنه إن كان المسيح لم يمت بعد، فمَن كان يستطيع أن يقضي على ذلك الموت؟ لا يوجد أحد. وبناء على ذلك كان من المحتم علينا أن نتعذب وأن نُعاقَب على الدوام. لأن الموت المادى بالنسبة لنا، لم يكن قد حدث بعد، حيث يستريح الجسد وينفصل عن النفس "*آخِرُ عَدُوٍّ يُبْطَلُ هُوَ الْمَوْتُ*"[٧٤]. بناء عليه فإن الجحيم سيظل قائمًا، لكن ليس للمؤمنين بل للأشرار، لأن المؤمنين تنتظرهم المكافآت والخيرات التي تتبع من **البر**.

وهكذا يقول بإن الرسول بولس، بعدما أخجلهم من جهة عبودية الخطية، وبعد أن أخافهم بالعقاب وحثهم على فعل الخير، يُصحح مسيرتهم مرة أخرى بواسطة تذكيرهم بعمل الخير. إذ أنه بواسطة هذه الأعمال يبرهنون على أنهم تخلّصوا من شرور كثيرة، لكن يذكّرهم أيضًا بأنه ليس بجهادهم قد تم هذا، وأن أمور

---

[٧٤] ١كو١٥:٢٦.

الدهر الآتي هى أكثر راحة. تمامًا مثلما يحدث لو أن شخصًا ما، أنقذ أسيرًا من يد طاغية مُستبد، ونصحه بعدم العودة لهذا الطاغية، وذلك بأن ذكّره بالآلام المخيفة التي جازها، هكذا صنع الرسول بولس فهو يُذكّرهم بالخطايا السالفة التي ارتكبوها قبلاً، ويشكر الله لأجل الغفران. لأنه لم يكن في استطاعة أي قوة إنسانية أن تُخلّصنا من كل هذه الخطايا، لذلك يجب أن نشكر الله الذي أراد خلاصنا، وحقق لنا أمورًا كثيرة. وحسنًا قال: "*أطعتم من القلب*" لأنه لم يجبركم ولا أكرهكم، لكنكم بإرادتكم وبرغبتكم ابتعدتم عن الخطايا. إلاّ أن هذا الكلام يُمثل مدحًا لهؤلاء، وفي نفس الوقت إدانة لهم. وكأنه يقول لهم: يا مَن ابتعدتم عن الخطايا بإرادتكم ودون أي إجبار، أي عذر لكم وأى تبرير إذا عُدتم للخطايا السالفة؟

ثم بعد ذلك لكى تعلم أنه لا يُعرب عن امتنانه بهم فقط، بل يُرجع الفضل إلى نعمة الله التي تشمل الكون كله، فبعدما قال: "*أطعتم من القلب*" قال "*صورة التعليم التي تسلمتموها*"، لأن الطاعة من القلب، تُظهِر بالتأكيد حرية قبولهم. وكون أنهم تسلّموا التعليم، فهذا يعني أن الله قدّم لهم هذه المعونة (النعمة). وما هى صورة التعليم؟ هى أن يحيوا بطريقة صحيحة، وبسلوك مُرضي. هكذا صاروا عبيدًا للبر، إذ قد تم عتقهم من الخطية.

وهنا يُظهِر عطيتين لله: التحرر من الخطية، والعبودية للبر، الأمر الذي هو أفضل من كل حرية دنيوية زائفة، لأن ما صنعه الله يشبه شخصًا تعهد طفلاً يتيمًا قد انتقل من بلاد البربر إلى بلده، فهو لم يحرّره من الأسر فقط، بل صار له أبًا معتنيًا به، ورفعه إلى أعظم

كرامة . هذا بالضبط ما حدث معنا. لأنه لم يحرّرنا فقط من الخطايا السالفة، بل قادنا إلى الحياة الملائكية، وفتح أمامنا طريق السلوك المرضي أمام الله. وبعد أن سلّمنا إلى البر الآمن، أزال الخطايا السالفة، وأمات إنساننا العتيق، وقادنا إلى الحياة الأبدية.

فلنتمسك بأن نحيا هذه الحياة، لأن كثيرين من أولئك الذين يعتقدون أنهم يحيون هذه الحياة ويسيرون فيها، يسلكون بصورة أكثر تعاسة من الأموات بالخطية. لأنه بالحقيقة توجد أنواع مختلفة من الميتات. يوجد موت الجسد والذي بحسبه لم يكن إبراهيم مائتًا على الرغم من أنه كان قد مات، لأن الله "*لَيْسَ اللّهُ إِلَهَ أَمْوَاتٍ بَلْ إِلَهُ أَحْيَاءٍ*"[٧٥]. هناك موت آخر هو موت النفس والذي قصده المسيح بقوله: "*دَعِ الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ*"[٧٦]. ويوجد موت آخر والذي ينبغي أن يُمتدح وهو الذي يصير من خلال ضبط النفس، والذي قال عنه الرسول بولس: "*فَأَمِيتُوا أَعْضَاءَكُمُ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ*"[٧٧]. ويوجد موت قد حدث بسبب الخطية، هذا الذي صار في المعمودية لأن: "*إِنْسَانَنَا الْعَتِيقَ قَدْ صُلِبَ*"[٧٨] أي مات. وإذ نعرف كل هذا، لنتجنب ذلك الموت، والذي بحسبه وإن كنا أحياء، إلا أننا نجوز الموت، بينما يجب ألا نخشى ذلك الموت الجسدي الذي يشمل الجميع . فليكن لدينا تفضيل للموتين الآخرين، والذي يُعَد الواحد منهما مُطوبًا، ذلك الذي أُعطيَ من الله، بينما الآخر مُمتدحًا، وهو الذي يتحقق من خلالنا، ومن

---

[٧٥] مت٢٢:٣٢.

[٧٦] مت٨:٢٢.

[٧٧] كو٣:٥.

[٧٨] رو٦:٦.

خلال معونة الله، وليكن سعينا نحوهما. لأن الواحد منهما يُطوّبه داود قائلاً: " *طُوبَى لِلَّذِي غُفِرَ إِثْمُهُ وَسُتِرَتْ خَطِيَّتُهُ*"[79]. بينما الآخر يمتدحه القديس بولس حين كتب إلى أهل غلاطية قائلاً: " *وَلكِنَّ الَّذِينَ هُمْ لِلْمَسِيحِ قَدْ صَلَبُوا الْجَسَدَ مَعَ الأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ*"[80].

وبالنسبة للموتين الآخرين، قال المسيح عن الواحد أن ليس له أهمية " *وَلاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا*"، بينما الموت الآخر مُخيف " *بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ*."[81]. ولهذا طالما أننا نتجنب ذلك الموت (أي موت النفس)، فعلينا أن نجوز الموت الذي يُطوّب، والذي هو محط للإعجاب، حتى نأتي إلى الموتين الآخرين، فنتجنب الواحد منهما (أي موت النفس)، والآخر لا نخشى منه (أي موت الجسد). لأنه لا توجد أى منفعة لنا. نحن الذين نعيش ونرى الشمس ونأكل ونشرب، إن لم تكن هناك أعمالاً صالحة ترافق الحياة.

ويتساءل ق. ذهبي الفم، قائلاً: ما هى المنفعة عندما يرتدى الملك الأرجوان، ويمتلك الأسلحة، دون أن يكون له مجموعات حماية تابعة له، ولا يكون في مأمن من أولئك الذين يرغبون في مهاجمته وإهانته؟ هكذا يكون المسيحي، فهو لن ينتفع بشيء لو كان لديه إيمانًا، ولديه العطية التي نالها في المعمودية، دون أن يكون محميًا في مواجهة الشهوات، لأن الإهانة ستكون أعظم، والخزي أكثر. لأنه كما أن الملك الذي يرتدي التاج والأرجوان، ليس فقط

---

[79] مز ٣٢: ١.

[80] غل ٥: ٢٤.

[81] مت ١٠: ٢٨.

لن يربح أي شيء من وراء هذا الملبس فيما يختص بالكرامة التي ينالها، لكنه يُسيء لهذا الملبس. إذا كان سلوكه مخزيًا، هكذا فإن المؤمن الذي يحيا حياة فاسدة، ليس فقط لن يكون موضع احترام، بسبب هذه الحياة الفاسدة، بل سيصير محطًا للسخرية بدرجة كبيرة. "*لأَنَّ كُلَّ مَنْ أَخْطَأَ بِدُونِ النَّامُوسِ فَبِدُونِ النَّامُوسِ يَهْلِكُ. وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَ فِي النَّامُوسِ فَبِالنَّامُوسِ يُدَانُ*"[٨٢]. وعندما كتب إلى العبرانيين قال: "*مَنْ خَالَفَ نَامُوسَ مُوسَى فَعَلَى شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةِ شُهُودٍ يَمُوتُ بِدُونِ رَأْفَةٍ. فَكَمْ عِقَابًا أَشَرَّ تَظُنُّونَ أَنَّهُ يُحْسَبُ مُسْتَحِقًّا مَنْ دَاسَ ابْنَ اللهِ*"[٨٣]. وهذا أمرًا طبيعيًا جدًا لأن كل الشهوات قد أُخضعت لك بالمعمودية. ماذا حدث حتى تُهين هذه العطية العظيمة، وتصير إنسانًا آخر، بدلاً من أن تكون مختلفًا (عما كنت عليه سابقًا)؟ لأن الله قد أمات ودفن خطاياك السابقة كما تُدفن الحشرات. لماذا تلد خطايا أخرى؟ علمًا بأن الخطايا هى أسوأ من الحشرات، إذ أن الحشرات تُدمر الجسد، بينما الخطايا تُدمر النفس، وتُثير عفونة أكثر. لكن نحن لا نشعر بهذه العفونة، لهذا فإننا لا نحرص على تنقية نفوسنا. لأن المخمور لا يعرف كيف يكون النبيذ الفاسد أو رائحته الكريهة، لكن الإنسان الواعي يعرف هذه الأشياء بالتدقيق. هذا ما يحدث مع الخطية. فذاك الذي يحيا بالعفة، يعرف بدقة مدى عفونة الخطية ووصمتها، بينما ذاك الذي أسلم نفسه للشر، كالمخمور، فهو لا يعرف أنه مريض.

وهذا على أية حال هو الشيء المخيف في ارتكاب الخطية، إنها لا تترك مجالاً لأولئك الذين يسقطون فيها، لكي يُدركوا حجم

---

[٨٢] رو ٢: ١٢.

[٨٣] عب ١٠: ٢٨، ٢٩.

التدمير الذي أصابهم. فبينما هم موجودون داخل العفونة، يعتقدون أنهم يتمتعون برائحة طيبة. ولهذا تحديدًا لا يستطيعون أن يتخلّصوا منها، وبينما هم مملئون بالحشرات، يفتخرون كما لو كانوا مُزينين بأحجار كريمة. ومن أجل هذا فهم لا يريدون أن يُميتوها، لكنهم يُغذونها ويجعلونها تتكاثر داخلهم، حتى ذلك الحين الذي ستكون معهم في الجحيم، لأن هذه الحشرات هي سبب وجود الحشرات التي لا تموت في الجحيم "*حَيْثُ دُودُهُمْ لاَ يَمُوتُ*"[٨٤]. هذه الحشرات تُشعل جهنم التي لا تُطفأ أبدًا. ولكي لا يحدث هذا. فلنحرص على أن نُدمر مصدر الشرور، ولنطفئ أتون النار، ولنقتلع الخطية من جذرها. لأنه لو قطعت شجرة الشر من أعلى، فإنك لم تفعل شيئًا، طالما أن الجذر باقٍ من أسفل وسيُنبت نفس الأشياء مرة أخرى.

وأتساءل: ما هى جذور الخطايا؟ أجيب: تعلّم من البستاني الصالح، الذي يعرف هذه الأمور جيدًا، الذي يعتني بالكرم الروحي ويرعى كل المسكونة.

أصل كل الشرور

بعد ذلك، يؤكد على أن أصل كل الشرور، هو في محبة المال، لأنه يتساءل قائلاً: ما هو أصل كل الشرور؟ ثم يُجيب: هو محبة المال، لأن الرسول بولس يقول: "*مَحَبَّةَ الْمَالِ أَصْلٌ لِكُلِّ الشُّرُورِ*"[٨٥]. من هنا تأتي المشاجرات والعداوات والحروب، من هنا تأتى المشاحنات والكلام البذيء والشكوك والإهانات، من هنا

---

[٨٤] مر ٩:٤٤.

[٨٥] ١تيمو ٦:١٠.

يأتي القتل والسرقات ونبش القبور. إن محبة المال لا تجعل المدن والقرى فقط، مملوءة بالدماء والقتل، بل أيضًا الشوارع، والأرض الآهلة بالسكان، والأماكن المهجورة، والجبال والوديان والتلال، كلها بشكل عام. بل إن البحر أيضًا لم ينجو من هذا الشر، فالقتل قد طاله بهوّس شديد، إذ أن القراصنة يحيطون به من كل ناحية، ويخترعون طرقًا جديدة للسطو والسرقة. لقد انقلبت كل أواصر القرابة بسبب محبة المال، بل وديست بالأقدام كل الوصايا الإلهية الخاصة بقانون المحبة.

لأن سلطة المال الطاغية، لم تُسلّح تلك الأيدى ضد الأحياء فقط، بل وضد الأموات أيضًا، حتى الموت لا يجعل هؤلاء يتوقفون عن ممارسة شرورهم، لكنهم يفتحون القبور، ويمدون الأيدى الملوثة إلى أجساد الموتى، دون أن يتركوا حتى ذلك الذي فارق الحياة بعيدًا عن عبثهم. إن حدث ورأيت مرتكبي هذه الخطايا مهما كان مقدارها، سواء في البيت أو في السوق أو في المحاكم أو في البرلمانات أو في القصور أو في أى مكان آخر، سترى أن كل هذه الخطايا تأتي نتيجة محبة المال. لأن هذه الخطية هى التي غمرت الجميع بالدماء والقتل، هذه الخطية هى التي أشعلت لهيب جهنم، وهى التي لم تجعل المدن أفضل من الصحراء (من حيث الأمان)، بل أسوأ. لأنه من السهل أن نتحصن من أولئك الذين يتربصون بنا في الصحراء، لأنهم لا يهاجمون بصفة دائمة، بل إن الذين يتمثلون بهم داخل المدن، هم أشر منهم، ومن الصعب أن نتحصن ضدهم، إنهم يشرعون في ارتكاب تلك الأمور علنًا، بينما أولئك يصنعونها سرًا. لأن القوانين التي من المفترض أنها موجودة

لتُحجّم خطيتهم، هؤلاء جعلوها حليفة لهم، فملأوا المدن بالقتل وبكل ما يُثير الإزعاج.

أليس هو قتلاً وأشر من القتل حين نُسلم الفقير إلى الجوع، ونضعه في السجن، وبالإضافة إلى معاناة الجوع نسلمه إلى عذابات وإلى مساوئ غير محدودة؟ وحتى لو لم تصنع أنت هذه الأمور، لكنك تدفع آخر لكي يُنفذها. إنك تمارس هذه الأمور بالأكثر عن طريق خدامك، لأن القاتل يستخدم سيفه وقت ارتكاب جريمته، والعذاب الناتج عن القتل لا يستمر إلاّ لوقت قصير. أما أنت فبوشاياتك، وإهاناتك، وهجماتك، تجعل النور بالنسبة له ظلامًا، وتجعله يشتهى الموت آلاف المرات، فكّر في كم تكون عدد الميتات التي ترتكبها مقابل الموت الواحد. والأكثر فزعًا من كل شيء، أنك تسلب، وتخطف، إذ أنت طماع، وشره، لا لأن الفقر يضغط عليك، ولا لأن الجوع يجبرك على هذا، بل لكي تُغطي سرج الجواد بذهب كثير، وأيضًا سقف البيت ورؤوس الأعمدة. كم أنت مستحقًا لعذاب أكثر من جهنم، عندما تُلقي بالأخ الذي صار شريكًا لك في الخيرات السمائية، والذي كُرّم بهذا القدر الكبير من سيدك، إلى هذه النكبات غير المحدودة، لكي تُزين أرضيات وحوائط مسكنك وأيضًا أجساد الجياد التي في غنى عن هذه الزينة لأنها لا تشعر بها؟

بل ويتعجب من موقف الأغنياء، تجاه الفقراء، ويقول: يا للعجب فقد صار الكلب موضع اهتمام بالغ من الأغنياء، أما الإنسان أو من الأفضل أن نقول إن كل مَن دُعى باسم المسيح، يواجه حالة أسوأ من الجوع، بسبب اهتمام الأغنياء بالكلاب. وهل يوجد ما

هو أسوأ من هذا الخلط وهذا الالتباس؟ وهل هناك أمرًا أكثر فزعًا من هذه المخالفة؟ وكم يكون عدد أنهار النار التي ستكفي لمثل هذه النفوس؟ عجبًا فالإنسان الذي خُلق على صورة الله، يُترَك هكذا في حالة بائسة، بسبب وحشيتك أيها الغني، بينما مناظر البغال التي تجر مركبة زوجتك، تلمع من كثرة الذهب، وأيضًا من كثرة الأموال التي تُنفق على تزيين العربة بالمعادن الثمينة والأخشاب والجلود . وإذا احتاج الأمر أن تصنع عرشًا أو مسندًا لراحة القدمين، فإنك تصنعها كلها من الذهب والفضة، بينما يوجد عضو من أعضاء المسيح، ذاك الذي من أجله أتى من السماء وسفك دمه الكريم، لا يتمتع حتى بالقوت الضروري لإعاشته، وذلك بسبب طمعك وشراهتك. وبالطبع فإن فراش النوم في قصرك أيضًا يكون مُغشّى بالفضة من كل ناحية، بينما أجساد القديسين تُحَرم من الغطاء الضروري، وبات المسيح (الفقير) بالنسبة لك، يستحق أقل مما يقدم للخدم، وللبغال، وللفراش، ولكرسى العرش، ولمسند القدمين . أما الأواني التي هى أكثر ثمنًا من هذه الأشياء، فإني أتجاوزها تاركًا لكم أن تُقدّروها.

فإذا كنت تشعر بالفزع عندما تسمع هذه الأمور، امتنع عن ممارستها، ولن يصيبك شيئًا مما قيل. ابقى بعيدًا عن هذا الهوس، لأن الاهتمام بهذه الأمور التي أشرنا إليها، هو بالحقيقة جنون مطبق. ولذلك فبعدما نترك هذه الأمور، ليتنا نتطلع نحو السماء، حتى ولو جاء هذا متأخرًا، لنتذكر يوم الدينونة، لنفكر في القضاء المخوف، والمسئوليات المؤكدة (التي نتحملها نتيجة أفعالنا)، وأحكام الله العادلة. وعلى الرغم من أن الله يرى هذه الأمور، إلاّ أنه لم يُرسل علينا صاعقة من السماء، برغم أن ما

يحدث لا يستحق صواعق فقط، بل كوارث أخرى أكثر هولاً، ومع هذا لم يفعل ذلك، ولا جعل فيضان البحر يتجه نحونا، ولا الأرض انفتحت من المنتصف، ولا الشمس انطفأت، ولم يلقِ ما في السماء من كواكب ونجوم، ولم يُدمر شيء، لكنه مازال يترك كل شيء يسير في نظام، ومازال الكون كله في خدمتنا.

وطالما أننا نفكر في هذه الأمور، فيجب أن نرتعد أمام عظمة محبته للبشر، ولنَعُد إلى أصلنا النبيل. لأننا بالتأكيد لا نسلك الآن بطريقة أفضل من الحيوانات غير العاقلة، لكن بطريقة أسوأ منها بكثير. لأن هذه الحيوانات تحب الحيوانات، الأخرى التي من جنسها، وهى سعيدة بشركتها في هذه الطبيعة الحيوانية، وما يجمع بينها هو الحنو، بينما أنت على الرغم من أن لك دوافع غير محدودة، تقودك وتدفعك باتجاه آخرين هم أعضاء في جسد واحد ـ بسبب الشركة في نفس الطبيعة ـ والتي منها أنك كُرمت بالعقل. وأنك تشترك معه في ممارسة التقوى، وأنك شريك معه في خيرات لا تُحصَى، ومع هذا صرت أكثر وحشية من تلك الحيوانات، مادمت تُظهر اهتمامًا كبيرًا بأشياء لا قيمة لها، وتتجرأ على هدم هياكل الله[86]، بأن تتركها فريسة للجوع والعري، ومرات كثيرة تسبب لها شرور عديدة. وأقول لك إذا كنت تصنع كل هذا بسبب حبك الكبير للمجد، إلاّ أنه كان ينبغي عليك أن تهتم بأخيك أكثر من اهتمامك بالجواد. لأنه على قدر اهتمامك بالإنسان الذي هو أولى بالإهتمام من الحيوان، على قدر ما يُنسج لك إكليل مُشرق، بسبب رعايتك له واهتمامك به. لكن للأسف أنت الآن تسقط في

---

[86] ويعنى بها أجساد البشر التي صارت مسكنًا لله " أنتم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم" (١كو٣:١٦).

هوة التناقضات وتجلب على نفسك إدانات كثيرة لا تشعر بها.

لأنه مَن ذا الذي يرى أفعالك ولا يدينك؟ ومَن من البشر لن يتهمك بهذه القسوة الشديدة. وكراهية الناس، عندما يرى أنك تُهين جنس البشر، وتهتم بالحيوانات وبأثاث البيت، على حساب البشر؟ ألم تسمع الرسل الذين قالوا إن أولئك الذين قبلوا الكلمة أولاً، قد باعوا البيوت والحقول لكي يُطعموا الاخوة؟ إلاّ أنك للأسف تسلب بيوتًا وحقولاً، لكي تُزين جواد وأخشاب وجلود وحوائط وأرضيات. والمؤكد أنه ليس فقط رجال بل ونساء أيضًا يُعانون من هذا الهوس، للأسف يخصصون رجالاً لمثل هذا العمل المتعب والباطل ويُلزموهم بالإنفاق على أمور نافلة، بدلاً من الاعتناء بالأمور الضرورية، وإن قام أحد باتهامهن لأجل اعتناءهن بهذه الأمور الباطلة، فيكون دفاعهن حاضرًا ومملوءًا بالإدانة القاسية، ونستشف من دفاعهن أنهن أُصبن بنفس الهوس، وأنهن يدفعّن رجالهّن نحو هذا الطريق.

ألا تخشى وتُحصي المسيح الذي يتضور جوعًا، ضمن الجياد والبغال والفراش ومساند الأرجل؟ أو من الأفضل أن نقول إنك لا تُحصه مع هذه الأشياء الباطلة، بل وتخصص الجزء الأكبر من أموالك لها، بينما تُعطي للمسيح أقل جزء. ألا تعرف أنك مدان، بسبب أن كل الأشياء التي تمتلكها هى مِلك له؟ إلاّ أنك لا ترد الجميل ولا تريد أن تعطي له مكافأة صغيرة . إليك هذا المثال الذي سوف يوضح لك هذا الأمر، فلو أنك قد أجّرت منزلاً صغيرًا، فإنك تُدقق في طلب الإيجار، ولكنك الآن وأنت تتمتع بكل ما في الكون الذي هو ملك له، وبهذا العالم الكبير كمسكن لك، ألا تتحمل

مسئولية دفع إيجار قليل، إنك تُسلّم نفسك وكل أموالك للمجد الباطل، فكل هذه الأمور تعتمد على ما نحن فيه الآن، لأنه ليس من الممكن أن يصير الجواد أفضل من حيث القيمة أو الإمكانية، عندما توضع عليه هذه الزينة، ولا أيضًا الإنسان الذي يجلس فوقه، بل في بعض الأحيان يصير بالأكثر غير مستحق للكرامة. لأن كثيرين يتركون الفارس، ويوجهون أنظارهم إلى زينة الجواد، وإلى الخدم المحيطين به، والذين يسيرون بطريقة رسمية، بينما ذاك المحاط من كل هؤلاء، يبغضونه وينصرفوا عنه كعدو لهم. بيد أن هذا لا يحدث لك عندما تُزين نفسك بالفضيلة، بل إن الناس والملائكة، ورب الملائكة، الجميع ينسجون لك الإكليل.

فلو أنك تشتهى المجد الحقيقي، إهرب بعيدًا عن تلك الأمور التي تمارسها الآن، ولا تهتم بتزيين البيت، بل زيّن النفس بالفضيلة. لكى تصير مُشرقًا ومعروفًا. أما ما يحدث الآن فمن المؤكد أنه يجعلك أكثر تفاهة من أي شيء، طالما أنك تحمل نفسًا مُقفرة بلا ثمر، وتهتم بجمال البيت أولاً أكثر من إهتمامك بالبشر.

وإن كان كلامي، لا يُسبِّب لك أية معاناة، إسمع ماذا فعل أحد الوثنيين، وسوف تشعر بخزي، على الأقل من أجل فلسفتهم، قيل أن شخصًا من هؤلاء، عندما دخل إلى بيت يلمع من كثرة ما به من نقوش ذهبية، ومُضيء من شدة جمال المرمر والأعمدة والأرضيات المفروشة بالسجاد، بصق في وجه صاحب البيت. وعندما أدانوه لأجل هذا الفعل، قال بأنه لم يكن مسموحًا له أن يبصق في أي موضع من مواضع البيت الأخرى، ولهذا اضطررت

لإهانة وجهه[87]. أرأيت أن ذاك الذي يهتم بالزينة الخارجية هو مثار للسخرية، ويُحتقَر من أولئك الذين لهم رؤية ثاقبة؟ وهذا أمر طبيعي جدًا. لأنه لو أن أحدًا ترك زوجته ترتدي ملابس مُمزقة، ولم يهتم بمظهرها الخارجى، ثم اعتنى بالخادمات فألبسهن حللاً براقة، فإنك لن تقبل هذا الأمر، بل ستغضب وستقول إن هذا التصرف هو عمل غير لائق بالمرة.

هذا ما ينبغي أن تفكر فيه بالنسبة للنفس. لأنه عندما تُزين الحوائط والأرضيات، والأثاث، وكل الأشياء الأخرى، ولا تقدم أعمال الرحمة بسخاء، وأيضًا لا تعيش حياة العفة، فيكون كل ما تفعله مجرد تكرار لشيء واحد، أو من الأفضل أن نقول إنك ترتكب شرورًا مُرعبة. لأنه لا يوجد أي فرق بين الخادمة وربة البيت (من جهة الجسد)، لكن يوجد فرقًا كبيرًا بين النفس والجسد. وطالما أن هناك فرقًا كبيرًا بين النفس والجسد، فبالأكثر جدًا سيكون هناك فرقًا كبير بينها وبين البيت، والفراش، ومساند الأرجل . إذًا أى تبرير لديك يمكن أن تُقدمه، عندما تُغطي كل هذه الأشياء بالفضة، بينما تُترَك النفس رثه، مُهمَلة، وجائعة ومليئة بالجروح، وتنهشها كلاب كثيرة (أي شرور كثيرة)، ثم بعد ذلك تعتقد أنك تنال مجدًا حين تزين كل الأشياء التي تُحيط بك من الخارج؟ هذا على أية حال دليل على أسوأ حالات فقدان العقل، فبينما تكون مثارًا للسخرية والتهكم، وتسلك بسفه وتُحتَقر، وتسقط في أشر عقوبة، فإنك لا تزال تفتخر بكل هذه الأمور. ولهذا أرجو، بعدما نفكر جيدًا في كل ذلك، أن

---

[87] هذه القصة الهزلية وردت عند أريستيبو (Αρίστιππος)، كما يخبرنا ديوجينيس عندما يكتب عن سيرة الفيلسوف.

نستفيق ولو مرة واحدة على الأقل، وحتى ولو جاء هذا متأخرًا، ولنرجع إلى عقولنا، مُحولين الزينة من زينة خارجية إلى زينة النفس. لأنه هكذا ستبقى الزينة ثابتة، وستجعلنا مساوين للملائكة، وسنصير سببًا لخيرات أكيدة.

حياة الفضيلة وقداسة الحياة

وحتى يؤكد الرسول بولس على أهمية تقديم الأعضاء عبيدًا للبر، يقول: "كَمَا قَدَّمْتُمْ أَعْضَاءَكُمْ عَبِيدًا لِلنَّجَاسَةِ وَالإِثْمِ لِلإِثْمِ، هكَذَا الآنَ قَدِّمُوا أَعْضَاءَكُمْ عَبِيدًا لِلْبِرِّ لِلْقَدَاسَةِ"[88].

لقد طلب منهم أن يكونوا يقظين بالنسبة للحياة التي يعيشونها، حاثًا إياهم أن يكونوا أمواتًا عن العالم، وأن يكونوا قد ماتوا عن الشر، ويبقوا ثابتين في مواجهة الخطايا، والواضح أنه قال لهم أمرًا كبيرًا وثقيلاً، ويفوق قدرات الطبيعة الإنسانية. إلاّ أنه أراد أن يُبيّن أنه لم يطلب شيئًا مُبالغًا فيه، ولم يعطِ انطباعًا بأنه طلب من ذاك الذي تمتع بعطية عظيمة بهذا القدر، أن يفعل فعلاً عظيمًا، لكنه أراد أن يُظهر شيئًا معتدلاً جدًا وسهلاً، فاستخدم هذه المفارقة وقال: "*أتكلم إنسانيًا* " كما لو أنه قال إن هذه الأمور عادةً ما تصير بالمنطق الإنساني. وسواء كان هذا الشيء كبيرًا أو متوسطًا، فإنه بيَّنه في بُعدهِ الإنسانى . لأنه في موضع آخر يقول: " *لَمْ تُصِبْكُمْ تَجْرِبَةٌ إِلاَّ بَشَرِيَّةٌ*"[89] أى بحسب قدرات الإنسان. *كما قدمتم أجسادكم عبيدًا للنجاسة والإثم للإثم. هكذا الآن قدموا أعضاءكم عبيدًا للبر للقداسة* ". وعلى

---

[88] رو ٦:١٩.

[89] ١كو ١٠:١٣.

الرغم من أنه يوجد اختلاف كبير بين السادة، لكنني أطلب معيارًا متساويًا من جهة العبودية (للبر)، وبالأكثر جدًا أن تقدموا أعضاءكم عبيًا للبر والقداسة. على قدر ما لهذه السيادة (سيادة البر) من عظمة وأفضلية، مُقارنةً بسيادة الخطية. لكنني لا أطلب منكم شيئًا أكثر، بسبب ضعفكم.

ولم يقل "اختياركم"، ولا "رغبتكم"، لكنه قال "أجسادكم"، جاعلاً حديثه أقل إيلامًا . فإن كان هناك جسد للنجاسة، وآخر للقداسة، وجسد إثم، **وحياة بر**، فمن هو ذاك البائس والتعِس الذي يُفضِّل العبودية للخطية وللشيطان، على العبودية للمسيح؟ لذا عندما نسمع الآيات الآتية، سنعرف جيدًا، إننا لا نُقَدِم ولا حتى هذا الشيء اليسير.

لأنه حين قيل هذا الكلام، لم يكن محلاً للثقة، ولم يلاقِ ترحيب، ولم يحتمل أحد أن يسمعه، ولم يكن أحد يخدم المسيح كعبد **(للبر)**، بقدر ما كان يخدم الشيطان، لذلك يُبرهن على صدق كلامه بالآيات اللاحقة، مُشيرًا إلى تلك العبودية التي خضعوا لها قائلاً: " لأَنَّكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ عَبِيدَ الْخَطِيَّةِ، كُنْتُمْ أَحْرَارًا مِنَ الْبِرِّ"[٩٠].

ما يقوله يعنى الآتى: عندما كنتم تعيشوا في الشر والجحود وترتكبوا أسوأ الخطايا، كنتم تعيشوا في خضوع كبير، حتى إنكم لم تفعلوا أى صلاح على الاطلاق . هذا هو معنى "*أحرارًا من البر*". أى أنكم لم تكونوا خاضعين للبر، بل مُتغربين عنه تمامًا. وبالتأكيد ولا حتى قسّمتم عبوديتكم تارة للبر، وتارة أخرى

---

[٩٠] رو٦: ٢٠.

للخطية، لكنكم سلّمتم أنفسكم بالكامل للشر.

وبناء على ذلك ولأنكم انتقلتم الآن إلى **البر**، فعليكم أن تسلموا أنفسكم بالكامل لحياة الفضيلة، ولا تفعلوا أى خطية على الإطلاق، فعلى الرغم من أن الفرق - بين سلطان الخطية، وسلطان **البر** - كبيرًا، إلاّ أن الفرق في العبودية هو أيضًا كبير جدًا، الأمر الذي شرحه بوضوح كبير، وأظهره لمن كانوا عبيدًا للخطية آنذاك، ولمن هم عبيدًا **للبر** الآن. ولم يتكلم بعد عن الخسارة التي تأتي من (العبودية للخطية)، لكنه تكلم أولاً عن الخجل أو الحياء.

لأن العبودية للخطية لم تأتِ بأى ثمر، حتى أن تذكّرها الآن يُثير خجلاً، فلو أن التذكّر يُثير ذلك، فبالأكثر جدًا فعل الخطية، فإنكم الآن قد ربحتم بطريقة مزدوجة، إذ قد تحررتم من الخجل، وأيضًا عرفتم الحالة التي كنتم فيها تحيون. تمامًا مثلما كانت الخسارة قبلاً مزدوجة، لأنكم فعلتم أمور تستوجب الخجل، ولأنكم لم تعرفوا أن تستحون، وهو الأمر الذي يُمثل صعوبة أكثر من الأمر الأول. لذلك وبعدما أظهر الرسول بولس الخسارة الكبيرة التي صارت من جرّاء الأفعال التي حدثت آنذاك، من خلال الخجل، يتقدم نحو نفس الأمر. وما هو هذا الأمر؟ " **لأن نهاية تلك الأمور هى الموت** ". لأنه طالما أن الخجل لم يبدو أنه كان أمرًا مزعجًا على الاطلاق، فإنه يأتي إلى الأمر الأكثر فزعًا، أي الموت، برغم أن ما قيل سابقًا كان كافيًا.

فلتفكر إذًا في مقدار قوة الخطية، إذ لم يكن في استطاعتهم أن يتخلّصوا من الأمور التي تدعو للخجل في اللحظة التي كانوا

فيها متحررين من الإدانة . فأى مكافأة تُنتَظَر من كونكم عبيدًا للخطية، عندما ترى أن مجرد تذكَر الخطية في حد ذاته، يجعلك تختبئ وتخجل، وبالطبع في اللحظة التي فيها أنت متحرر من الإدانة، وإن كان من المؤكد، أنك مُقيم في نعمة عظيمة جدًا؟ لكن مثل هذه الأمور (الشائنة)، ليست من الله.

إذًا فالعتق من الخطية، والعبودية لله، سيأتي بثمار للقداسة، والحياة الأبدية. الثمر لأولئك الذين فعلوا الخطية وصاروا عبيدًا لها، كان هو الخجل، الثمر لهؤلاء الآن الذين صاروا عبيدًا لله هو القداسة، وحيث توجد القداسة، يوجد كل شيء في العلن . إن نهاية أولئك ـ الخاضعين للخطية ـ هى الموت، بينما نهاية هؤلاء ـ الخاضعين للنعمة ـ هى الحياة الأبدية.

أرايت كيف أنه يُظهر أمورًا قد أُعطيت، وأمورًا أخرى على رجاء الانتظار، ويؤكد على حقيقة الأمور التي أُعطيت، من خلال تقديس الحياة؟ هكذا لكي لا تقول، إن كل الأمور هي على رجاء الانتظار، يُبيّن كيف أنك قد أثمرت:

أولاً: أنك تحرّرت من الخطية وكل الشرور المشابهة، والتي تذكُّرها فقط يثير خجلاً.

ثانيًا: أنك صرت عبدًا للبر.

ثالثًا: أنك تمتعت بالقداسة.

رابعًا: وأنك ستنال الحياة، ولكنها ليست الحياة الحاضرة، بل الحياة الأبدية.

هكذا يقول ق. يوحنا ذهبي الفم: أنا لا أطلب منكم شيئًا كثيرًا، بل أطلب منكم أن تصيروا عبيدًا للبر، إلا أن العبودية في

هذه المرة، غير العبودية السابقة التي كانت للخطية. هذا ما أردت أن أوضّحه لكم، أن الرب يمنح الكثير جدًا، وأن الفرق في العبودية وفي المكافآت هو كبير للغاية. وبعدما أشار إلى أسلحة، وإلى ملك، يُكرر ما قاله بصورة أخرى، قائلاً: " لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ، وَأَمَّا هِبَةُ اللهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا"[٩١].

بعدما قال "أجرة الخطية"، فإنه لم يستخدم نفس الاسلوب بالنسبة للأمور الصالحة، لأنه لم يقل " أجرة إنجازاتكم"، لكنه قال " أما هبة الله"، مُظهرًا أنهم لم يتحرروا من تلقاء أنفسهم، ولا أخذوا منفعة ما، ولا مكافأة، ولا تعويضًا عن أتعابهم، بل كل هذا قد صار بالنعمة الموهوبة لهم. حتى أن التمييز يأتى من هنا، لا لأنه قد خلّصهم فقط، ولا لأنه غيّرهم نحو الأفضل، لكن لأن هذا قد حدث دون جهد أو تعب بشري . فالله لم يخلصهم فقط، بل أعطاهم الكثير جدًا، وهذه العطايا قد أعطاها بإبنه. وقد ذكر الرسول بولس كل هذه العطايا، لأنه تَكلّم عن النعمة، وكان ينتوى أن يُشير إلى الناموس فيما بعد. ولكي لا يصيروا غير مبالين أكثر بالنسبة للخطية ومدى سطوتها، والهبة ومدى عظمتها، يُشير إلى أسلوب الحياة الصحيح، حاثًا المستمع في كل موضع على الاهتمام بالفضيلة. فعندما أوضح أن الموت، هو أجرة الخطية، أراد أن يخيفهم مرة أخرى، ويؤَّمنهم من جهة الأمور المستقبلية. لأنه من خلال الأمور السابقة في حياتهم والتي يُذكّرهم بها دومًا، يجعلهم يدركون مدى إحسانات الله، ويعترفون بهبة الحياة، ويثقوا أنهم في أمان من جهة حياة الدهر الآتي .

---

[٩١] رو ٦:٢٣.

بر الناموس وبر الإيمان

وبعد ذلك بدأ الرسول بولس يشرح كيف أن الأمم قد أدركوا البر دون أن يسعوا إليه، أما إسرائيل فلم يدركوا البر، على الرغم من أنهم قد حاولوا أدراكه. قائلاً: " فَمَاذَا نَقُولُ؟ إِنَّ الأُمَمَ الَّذِينَ لَمْ يَسْعَوْا فِي أَثَرِ الْبِرِّ أَدْرَكُوا الْبِرَّ، الْبِرَّ الَّذِي بِالإِيمَانِ. وَلكِنَّ إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ يَسْعَى فِي أَثَرِ نَامُوسِ الْبِرِّ، لَمْ يُدْرِكْ نَامُوسَ الْبِرِّ!"[٩٢].

هنا يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم، أهمية الإيمان، والبر الذي بالإيمان وأن بر الإيمان أعظم من بر الناموس، فيقول: من المؤكد أن الحل الواضح يوجد هنا. لأنه من خلال طبيعة الأمور قد أظهر أن " *ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون*"، ومن الأجداد، ذكر يعقوب وعيسو، ومن الأنبياء هوشع وإشعياء، ثم يُضيف الحل الأهم، بعدما أسهب في حديثه السابق عن مقدار الشك. وبالإضافة إلى ذلك فإن الأمر هنا له **بُعدين، أن الأمم أدركوا البر، وأنهم أدركوه بدون أن يسعوا إليه، أي دون أن يحاولوا إدراكه.** ومن جهة اليهود أيضًا، فهناك أمران: أن الإسرائيليين لم يدركوا البر، وذلك بالرغم من أنهم قد حاولوا إدراكه. ولهذا فقد استخدم الرسول بولس الكلمات بأكثر وضوح، لأنه لم يقل إنه "ربح البر"، بل "**أدرك**". أى أن الأمر الذي يُسمع لأول مرة والمثير للغرابة، هو أن الذي سعى في أثر البر، لم يُدرِك البر، بينما ذاك الذي لم يسعَ، قد أدرك البر. والواضح أنه حاول الترفق بهم، بقوله "وهو يسعى"، ولكنه أعلن بعد ذلك الصدمة الكبيرة.

---

[٩٢] رو ٩: ٣٠-٣١.

ولأنه كان لديه ما يُضيفه لتقديم الحل القوي، لم يتردد أبدًا، جاعلاً المفارقة أكثر فزعًا. ولهذا لم يتكلم عن الإيمان والبر، لكنه أظهر أن اليهود كانوا مُدانين قبل الإيمان أيضًا، إذ أنهم قدهُزموا في الأمور التي تخصّهم. فأنت أيها اليهودي لم تُدرك البر من خلال الناموس، لأنك قد خالفته، وصرت مسئولاً عن اللعنة، بينما أولئك الذين لم يأتوا عن طريق الناموس، بل أتوا من طريق آخر، أدركوا برًا أعظم من بر الناموس، هذا البر الذي أتى بالإيمان. هذا تحديدًا ما قاله من قبل " لأَنَّهُ إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ قَدْ تَبَرَّرَ بِالأَعْمَالِ فَلَهُ فَخْرٌ، وَلكِنْ لَيْسَ لَدَى اللهِ"[٩٣]، لكي يُبيّن أن بر الإيمان أعظم من بر الناموس.

لقد قال قبلاً إن الشكوك أو التساؤلات نوعان، أما الآن فقد صارت ثلاثة، **أي أن الأمم قد أدركوا البر، ودون أن يسعوا في أثره قد أدركوه، وأنهم أدركوا أن هذا البر الذي بالإيمان هو أعظم من بر الناموس.** هذه التساؤلات ذاتها هي بالضبط التي تُصاغ أيضًا من جهة اليهود من الناحية العكسية، أن الإسرائيليين لم يدركوا البر، وأنهم لم يدركوه على الرغم من أنهم سعوا في أثره. وأنهم لم يدركوا ولا حتى القليل منه. إذًا بعدما وضع السامع في حيرة، أضاف الحل سريعًا فيما بعد، ثم يُقدم السبب لكل ما قيل.

وهو "لأَنَّهُ فَعَلَ ذلِكَ لَيْسَ بِالإِيمَانِ، بَلْ كَأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ"[٩٤]. هذا هو الحل الواضح جدًا لكل ما سبق طرحه، والذي لو كان قاله من البداية مباشرةً، لما كان مقبولاً بهذه السهولة. ولكن

---

[٩٣] رو ٤: ٢.

[٩٤] رو ٩: ٣٢.

نظرًا لأنه ذَكَره بعد تساؤلات كثيرة، وإعداد، وبراهين، وعرض لشروحات كثيرة جدًا. فقد جعله أكثر سهولة وأكثر قبولاً. هذا هو سبب هلاكهم، أنهم لم يريدوا أن يتبرروا بالإيمان، بل بأعمال الناموس. ولم يقل بالأعمال. بل "كأنها بأعمال الناموس"، مُظهرًا كيف أنه، ولا هذا البر قد أدركوه.

هكذا أوضح كيف أن الافتخار أو الشجاعة تأتي من الإيمان، وكيف أن العطية هى للجميع. لم يقل إنها فقط لليهود، بل هى لكل الجنس البشري. لأن كل واحد سواء كان يهوديًا أم يونانيًا أم سكيثيًا أم ثراكيًا أو من أي جنس، عندما يؤمن سيتمتع بمجازاة كبيرة ولن يُخزى، لكن ما يستحق الإعجاب في كلمات إشعياء النبي هو أنه لم يقل فقط كل من يؤمن، بل أنهم لن يؤمنوا، لأن كلمة اصطدموا بحجر العثرة، تعني أنهم لن يؤمنوا. تمامًا كما أعلن سابقًا، عن أولئك الذين يهلكون وأولئك الذين يخلصون، قائلاً: " *وإن كان عدد بني إسرائيل كرمل البحر فالبقية ستخلص*"، و"*لولا أن رب الجنود أبقى لنا نسلاً لصرنا مثل سدوم* "، ودعوته كانت للأمم أيضًا، وليس فقط لليهود، هكذا تحديدًا هنا أيضًا، يقول إن البعض سيؤمنون، والبعض سيتعثرون. أما من حيث إنهم يتعثرون فهذا يأتي نتيجة عدم الإنتباه، حيث أنهم فشلوا في أمور أخرى. إذًا فهؤلاء الذين تَطلّعوا نحو الناموس، إصطدموا بحجر الصدمة. ويقول النبي، حجر صدمة، وصخرة عثرة، بسبب الاختيار، بالإضافة إلى النهاية التي تنتظر أولئك الذين لم يؤمنوا.

هل صار ما قيل واضحًا لكم، أم أن الأمر يحتاج بعد لكثير من الشرح؟ أنا أعتقد أن الأمر أكثر من سهل بالنسبة للذين دقّقوا

في فهم ما شرحناه، لكن إذا كان البعض لم ينتبه، فيمكن أن نلتقي معهم بشكل خاص، ويسألون ويعرفون. لأنه لهذا جعلت الشرح مطولاً، حتى يتضح بصورة كبيرة، ويُصبح مقبولاً لدى الجميع، ولكي يظل التتابع الفكري مستمر. ولهذا سأنهي الحديث هنا، دون أن أحدثكم مُطلقًا عن الموضوعات السلوكية، الأمر الذي تعودت أن أفعله، لكي لا أُجهد ذهنكم أيضًا بالكلام الكثير. حان الوقت إذًا لأُنهي حديثي بالنهاية المناسبة، وأختتمه بتمجيد إله الكل. فلنعطي المجد لله، لأن له الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين .

المسيح وكمال الناموس

ثم يلفت ق. يوحنا ذهبي الفم الإنتباه إلى أن الرسول بولس ينشغل مرة أخري بهؤلاء اليهود بشكل أقوى من ذي قبل. ولهذا نجده يُزيل الشكوك التي توحي بوجود بغضة أو نفور، ويُمهد كثيرًا لما يريد قوله لكي يتفادى سوء ظن المتلقي لرسالته. هكذا يقول لهم. ينبغي ألاّ تتخوفوا من كلامي ولا من شكواي، بل إن ما أقوله ليس نابعًا من شعور عدائي. لأنه لا يمكن لشخص واحد، أن تكون لديه رغبة في خلاص هؤلاء اليهود، بل ويُصلي من أجل هذا الخلاص، ثم في نفس الوقت يُبغضهم وينفر منهم. بالإضافة إلى أن مسرته هنا كما يقول، هى رغبته الشديدة، والطلبة التي يرفعها إلى الله من أجل خلاص إسرائيل. ليس فقط من أجل أن ينجوا من الجحيم، بل لأجل خلاص هؤلاء، وهو مهتم بذلك ويُصلي كثيرًا لأجله. وهو يُظهر محبة تجاه هؤلاء اليهود، ليس فقط في هذا الجزء، بل وفي الآيات التي تَلي ذلك أيضًا. لأنه من خلال الأمور

ذاتها، قد جاهد وناضل على قدر ما يستطيع، أن يجد لهم منفذًا ولو بقدر بسيط ليدافع عنهم. لكنه لم يستطع، لأن طبيعة الأمور قد أعجزته عن فعل هذا.

بالطبع هذه الأمور تستحق المغفرة، وليس الإدانة. إذًا فإن كانوا مُتميزين، لا من الناحية الإنسانية، بل من جهة الغيرة لله، فمن العدل أن يُرَحموا، بدلاً من أن يُدَانوا. لكن لاحظ كيف أنه بحكمة قد صنع لهم خدمة بكلمته، وأظهر شجارهم غير الملائم، لأنه يقول: " لأَنَّهُمْ إِذْ كَانُوا يَجْهَلُونَ بِرَّ اللّهِ"[٩٥]. أيضًا هذا الكلام يظهر غفرانًا، لكن الكلام اللاحق يُظهر إدانة شديدة جدًا، وينقض أي مُبرر من الممكن أن يُقال. **"ويطلبون أن يثبتوا بر أنفسهم، (لذلك) لم يخضعوا لبر الله "**. وقد قال هذا الكلام، لكي يُبيّن أنهم إنخدعوا بالأكثر بتأثير الرغبة في النزاع، وفي السلطة، وكذلك الجهل الشديد، إذ أنهم لم يَثبَتوا ولا حتى في هذا البر، الذي يأتي من تنفيذ وصايا الناموس. لأنه بقوله: "ويطلبون أن يثبتوا" يُظهر ذلك بالتحديد. وهذا ما لم يُشر إليه بوضوح، لأنه لم يقل إنهم فقدوا كل بر، لكنه ألمح إلى هذا برؤية كاشفة أو بنظرة ثاقبة، وبحكمة لائقة به. لأنهم إن كانوا يطلبون أن يثبتوا بر أنفسهم، فمن الواضح جدًا أنهم لن ينجحوا في ذلك، إن لم يخضعوا لبر الله الذي فقدوه. وقد أطلق الرسول بولس على هذا البر الذي يُريدون تثبيته، بر أنفسهم، إما لأن الناموس لم يعد صالحًا، أو لأنهم اعتمدوا على جهدهم وأتعابهم، بينما دَعَى البر الذي يأتي بالإيمان، بر الله، لأنه يعتمد على نعمة الله بالكامل، ولا يمكن نواله بالجهد، بل بعطية الله. أما أولئك الذين يُقاومون الروح القدس بصفة

---

[٩٥] رو ٣:١٠.

دائمة، ويجاهدون لأجل التبرير بالناموس، فلن ينالوا الإيمان. ولأنهم لم يقبلوا الإيمان، فإنهم لم يحصلوا على البر الذي بالإيمان، ولأنهم أيضًا لم يستطيعوا أن يتبرروا بالناموس، يكونوا قد فَقَدوا البر من كل جهة.

هكذا يقول ق. ذهبي الفم، أن الرسول بولس قد أوضح، بأن المسيح هو كمال الناموس، فمن له المسيح يكون قد نال كل شيء، حتى وإن كان لم يحقق بر الناموس إذ يقول: " لأَنَّ غَايَةَ النَّامُوسِ هِيَ: الْمَسِيحُ لِلْبِرِّ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ"[96]. هل رأيت مدى عظمة رؤية الرسول بولس؟ ليتك تلحظ ما فعل، فإنه تَكلَّم عن البر الذي بالناموس، والبر الذي بالإيمان، حتى لا يعتقد أولئك الذين آمنوا من اليهود، أنهم امتلكوا برًا وفقدوا الآخر، وأنهم أُدينوا بالمخالفة (إذ أنه ما كان ينبغي لهم أن يتهاونوا، طالما أنهم كانوا مُعمَدين حديثًا، ولا أيضًا اليهود الذين لم يؤمنوا لهم رجاء في تحقيق هذا البر، وليس بإمكانهم أن يقولوا أننا سنحققه فيما بعد، حتى إن كنَّا لم نحققه الآن، لاحظ ماذا يفعل، يُوضح أن البر واحد (وليس اثنين)، وأن بر الناموس، قد إنضم للبر الذي بالإيمان، ومَن أعطى الأولوية لبر الإيمان، يكون قد تممَّ البر الذي بالناموس أيضًا، أما الذي احتقر بر الإيمان، فقد صار فاقدًا لبر الناموس مع فقدانه لبر الإيمان. لأنه إن كان المسيح هو كمال الناموس، فمن لا يقبل المسيح، لن يكون له في الواقع بر الناموس، حتى وإن كان يعتقد أنه يتمتع به، بينما من له المسيح، يكون قد حصل على كل شيء، حتى وإن كان لم يُحقق بر الناموس.

---

[96] رو ١٠:٤.

هكذا أيضًا فإن هدف العلاج، هو استعادة الصحة الجيدة. تمامًا مثل ذاك الذي يستطيع أن يُعالِج آخر ويجعله في صحة جيدة، وإن كان ليس لديه بعد ترخيص لممارسة الطب، فإنه يملك كل شيء يقود للعلاج، بينما مَنْ لا يعرف أن يُعالِج، حتى إن كان يمارس العمل الطبي، يكون قد فَقَد كل شيء يقود للعلاج. هكذا فيما يتعلق بالناموس، والإيمان، فإن من يوجد خارج حظيرة الإيمان، يعتبر غريبًا عن الناموس، وعن الإيمان. إذًا ما هو الأمر الذي كان يُريده الناموس؟ كان يريد أن يُبرر الإنسان، لكنه لم ينجح، لأنه لا يوجد أحد قد تممَّ الناموس. لأن ما كان يصبو إليه الناموس، هو تبرير الإنسان، وكانت جميع الممارسات تدور حول تحقيق ذلك الهدف - أى تبرير الإنسان - مثل الاحتفالات، والوصايا، والذبائح، وكل الأمور الباقية. لكن هذا التبرير قد حققه المسيح بأعلى درجاته، بالإيمان. إذًا لا تخاف من الناموس، لأنك أتيت إلى الإيمان. فإن كنت قد آمنت بالمسيح، وتممّت الناموس، وأكثر جدًا مما يأمر به، فهذا لأنك أخذت برًا أكبر بكثير من بر الناموس.

ولأن هذا كله كان أمرًا محسومًا، فإنه يؤكد عليه بعد ذلك من خلال الكتب، إذ يقول: " لأَنَّ مُوسَى يَكْتُبُ فِي الْبِرِّ الَّذِي بِالنَّامُوسِ"[٩٧]. ما يقوله يعني الآتي: إن موسى يُبيّن لنا ما هو البر الذي بالناموس، وما منطقه، ومما يتكون أو يتشكل؟ إنه يقوم على أساس تتميم الوصايا. يقول " ***إن الإنسان الذي يفعلها سيحيا بها***". إذ أنه من غير الممكن أن يصير المرء بارًا بالناموس، إلاّ فقط من خلال تتميم كل الوصايا، بيد أن هذا لم يكن ممكنًا لأي

---

[٩٧] رو ١٠: ٥.

أحد، وبناءً على ذلك، فقد فشل هذا البر. أما عن البر الذي يأتي من النعمة، والأساس الذي يقوم عليه، فهذا ما يصفه الرسول بولس بكل وضوح. ولأنه أدان البر الذي يأتي بالناموس، نجده يذهب فيما بعد إلى بر الإيمان، قائلاً: " وَأَمَّا الْبِرُّ الَّذِي بِالإِيمَانِ"، وهكَذَا يَقُولُ: «لاَ تَقُلْ فِي قَلْبِكَ: مَنْ يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ؟» أَيْ لِيُحْدِرَ الْمَسِيحَ، «أَوْ: مَنْ يَهْبِطُ إِلَى الْهَاوِيَةِ؟» أَيْ لِيُصْعِدَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ لكِنْ مَاذَا يَقُولُ؟ «اَلْكَلِمَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، فِي فَمِكَ وَفِي قَلْبِكَ» أَيْ كَلِمَةُ الإِيمَانِ الَّتِي نَكْرِزُ بِهَا: لأَنَّكَ إِنِ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، خَلَصْتَ. لأَنَّ الْقَلْبَ يُؤْمَنُ بِهِ لِلْبِرِّ، وَالْفَمَ يُعْتَرَفُ بِهِ لِلْخَلاَصِ"[٩٨].

كلمة الإيمان

بعد ذلك، أوضح ق. ذهبي الفم، مفاعيل الإيمان في النفس. والفرق بين طريق البر بالناموس، وطريق البر بالإيمان. قائلا: إذ لكي لا يقول اليهود، كيف لهؤلاء الذين لم يجدوا البر الأصغر أن يحصلوا على البر الأكبر، فإنه يذكر الرؤية العكسية. وهي أن طريق البر بالإيمان، يعتبر أسهل من الطريق الآخر (أي طريق البر بالناموس). لأن طريق البر بالناموس يتطلب تتميم كل الوصايا، وحين تُتمّمها كلها، ستحيا. لكن البر الذي بالإيمان لا يتطلب هذا، بل فقط: " *إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت*". عليك أن تنتبه كيف يُكثِر الرسول بولس من الحديث عن بر الإيمان بعد ذلك، لكي لا يظهر أيضًا أنه يجعله بلا قيمة، إذ يُظهره سهلاً وبسيطًا، لأنه لم يأت

---

[٩٨] رو١٠:٦-١٠.

مباشرةً إلى ما قلناه، إذ يقول " *وأما من جهة البر الذي بالإيمان*"، فماذا يقول عنه:" *لا تقل في قلبك من يصعد إلى السماء أي ليحدر المسيح. أو من يهبط إلى الهاوية أي ليصعد المسيح من الأموات* ". لأنه كما في حالة الفضيلة التي تُستعلن بالأعمال، فإن الإيمان يُقاوم الخمول، وتراخي القدرات، ويحث النفس على أن تكون مُتيقظة جدًا، حتى لا تتقهقر، هكذا أيضًا عندما نؤمن كما ينبغي، نجد أن هناك أفكارًا تُثير حالة من اللَبس والشكوك، وتؤذي أذهان الكثيرين، وتحتاج إلى نفس قوية، تتصدى لها.

ولهذا تحديدًا يذكر هذه الأفكار، وما سبق أن ذكره في حالة إبراهيم، هذا يذكره هنا أيضًا، فهو يسمو بحقيقة الإيمان، بعدما أظهر كيف أن إبراهيم تبرَّر بالإيمان، حتى لا يظهر أنه قد أخذ إكليلاً عظيمًا بهذا القدر باطلاً، كما لو كان هذا الأمر لا قيمة له، فيقول: " *فَهُوَ عَلَى خِلاَفِ الرَّجَاءِ، آمَنَ عَلَى الرَّجَاءِ، لِكَيْ يَصِيرَ أَبًا لأُمَمٍ كَثِيرَةٍ، كَمَا قِيلَ:«هكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ». وَإِذْ لَمْ يَكُنْ ضَعِيفًا فِي الإِيمَانِ لَمْ يَعْتَبِرْ جَسَدَهُ - وَهُوَ قَدْ صَارَ مُمَاتًا، إِذْ كَانَ ابْنَ نَحْوِ مِئَةِ سَنَةٍ - وَلاَ مُمَاتِيَّةَ مُسْتَوْدَعِ سَارَةَ. وَلاَ بِعَدَمِ إِيمَانٍ ارْتَابَ فِي وَعْدِ اللهِ، بَلْ تَقَوَّى بِالإِيمَانِ مُعْطِيًا مَجْدًا للهِ. وَتَيَقَّنَ أَنَّ مَا وَعَدَ بِهِ هُوَ قَادِرٌ أَنْ يَفْعَلَهُ أَيْضًا*"[99]. وأظهر أن الأمر يحتاج إلى قوة وإلى نفس سامية حتى تستقبل تلك العطايا التي تتجاوز مجرد الرجاء، وألا تتعثر بسبب ما تراه. وهذا هو ما يفعله هنا أيضًا، حيث يُظهر أن الأمر يحتاج إلى فكر حكيم، وإرادة عظيمة تسمو حتى إلى السماء، وهو لم يقل فقط. لا تقل، بل " لا تقل في قلب "،

---

[99] رو ٤:١٨-٢١.

أي ولا حتى أن تفكر بالشك وتقول في نفسك، كيف يكون هذا ممكنًا؟

أرايت كيف أن ملمح الإيمان يتضح في أن نطلب الحياة الأبدية، بعدما نترك كل تطور طبيعي للأمور، وبعدما نرفض الأفكار المريضة، ونؤمن أن كل الأشياء تأتي بقوة الله؟ وإن كان من المؤكد أن اليهود لم يقولوا هذا فقط، بل أضافوا إنه من غير الممكن أن يتبرَّروا بالإيمان. أما الرسول بولس فيقود من اتخذ اتجاهًا آخر، إلى الطريق الصحيح، حتى يُبرهن على أن البر هو عظيم بهذا القدر، وحين يتحقق فإنه يحتاج إلى الإيمان. وحينئذ يتضح كيف أنه أمر عادل وحق، أن يُنسج إكليلاً لهؤلاء الذين يتبرَّرون بالإيمان، ويستشهد بما جاء في العهد القديم، مع توخي الحذر دائمًا في توجيه الإتهامات أو الإدانات، والصدام مع البر الذي بالناموس . ولهذا فإن ما يقوله هنا عن الإيمان، يقوله لهؤلاء من حيث وصية موسى، لكي يُظهر أنهم تمتعوا بإحسانات كثيرة من الله. لأنه من غير الممكن أن يقول إنه يجب أن يصعد إلى السماء، وأن يعبر بحرًا كبيرًا، حتى يأخذ الوصايا، بل إن الأشياء العظيمة والهائلة قد جعلها الله سهلة بالنسبة لنا.

وهنا يتساءل، قائلاً: ما معنى "الكلمة قريبة منك"؟ فيجيب: تعني أنها سهلة، لأن الخلاص يوجد في فكرك، وفي فمك، دون أن نسافر مسافات طويلة، ولا أن نبحر كثيرًا، ولا أن نتسلق جبالاً، هكذا يجب أن نَخلُص. لكن إن كنت لا تريد أن تسير حتى في هذا الطريق، فمن الممكن أن تَخلُص وأنت ماكث في بيتك، لأن بداية خلاصك هى في فمك وفي قلبك. بعد ذلك جعل

كلامه عن الإيمان سهلاً. بقوله إن " الله أقامه من الأموات ". فكّر إذًا في مكانة وقيمة ذاك الذي أقامه، ولن ترَ أى صعوبة في ذلك. وبناء عليه، حيث إنه هو الرب، فمكانته تتضح من القيامة، الأمر الذي ذكره في بداية الرسالة: "*وَتَعَيَّنَ ابْنَ اللهِ.. بِالْقِيَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ*"[100]، ومن حيث أن القيامة سهلة التحقيق، فهذا ما تبرهن من خلال قوة ذاك الذي جعلها تتحقق أيضًا، مع أناس كان من الصعب جدًا أن يؤمنوا. إذًا عندما يكون البر عظيمًا ويسيرًا، وسهل القبول، وعندما يكون من غير الممكن أن نتبرر إلاّ بهذه الطريقة، أفالا يُعتَبر سَعيهم لتحقيق المستحيلات، نموذجًا لأسوأ أنواع الجهاد؟ فهم قد تركوا الأمور السهلة والهيّنة، ولذلك لن يستطيعوا أن يقولوا إنهم قد تركوا التفكير في بر الإيمان، بسبب أنه كان ثقيلاً.

أرايت كيف أنه ينزع عنهم كل صفح أو مسامحة؟ فأي دفاع يمكن أن يقدموه، بعدما فضّلوا ما هو ثقيل وصعب التحقيق، واستهانوا بما هو سهل، كما احتقروا أيضًا من استطاع أن يصنع لهم الخلاص، وأعطاهم ما لم يستطع الناموس أن يُعطيه؟ إن هذا كله لا يتعدى كونه دليلاً على رغبة في النزاع أو الجدال ومقاومة الله. خاصة وأن الناموس ثقيل ومُرهِق، بينما النعمة سهلة، ولا يَقدِر الناموس أن يخلّص، حتى وإن حاولوا تنفيذ وصاياه بإجتهاد كبير، بينما النعمة تمنح البر الذي لها، وبر الناموس أيضًا. أي كلام إذًا يمكن أن يُخلّصهم، حين يتصرفون برغبة عدائية تجاه النعمة،

---

[100] رو ١:٤.

بينما هم يَتَطلَعون إلى الناموس، لكن بلا هدف، ويتجهون نحو الأمور التي لا فائدة من ورائها؟

الإيمان الحيّ

ولأنه قال شيئًا عظيمًا، فهو يؤكد عليه بعد ذلك من الكتب المقدسة، إذ يقول: " لأَنَّ الْكِتَابَ يَقُولُ:«كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُخْزَى». لأَنَّهُ لاَ فَرْقَ بَيْنَ الْيَهُودِيِّ وَالْيُونَانِيِّ، لأَنَّ رَبًّا وَاحِدًا لِلْجَمِيعِ، غَنِيًّا لِجَمِيعِ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِهِ. لأَنَّ «كُلَّ مَنْ يَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ يَخْلُصُ»"[101].

يقول ق. ذهبي الفم، إنتبه كيف أنه يقدم شهودًا للإيمان، وللإعتراف أيضًا (بإسم الرب) لأنه حين يقول "كل من يؤمن"، يشير إلى الإيمان، وحين يقول "كل من يدعو"، يُظهر الاعتراف باسم الرب، ثم يكرز أيضًا بعد ذلك بالنعمة التي هى للجميع، ويكبح إفتخار أولئك اليهود بتلك الأمور التي أظهرها سابقًا من خلال أشياء كثيرة، هذه الأشياء ذاتها يذكرها في إيجاز. لكي يُبيّن مرة أخرى، أنه لا يوجد أى فرق بين اليهودي وغير المختتن. "*لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني* ".

وفيما يتعلق بكلامه عن الآب، وإثبات أن أبوته للجميع، هذا يقوله أيضًا عن الابن. لأن هذا ما حدث سابقًا، إذ بيّن ذلك قائلاً: " أَمِ اللهُ لِلْيَهُودِ فَقَطْ؟ أَلَيْسَ لِلأُمَمِ أَيْضًا؟ بَلَى، لِلأُمَمِ أَيْضًا لأَنَّ اللهَ وَاحِدٌ"[102]. هكذا هنا أيضًا يقول: " *لأن ربًا واحدًا للجميع غنيًا لجميع الذين يدعون باسمه*". أرايت أنه يظهر أن الإبن يرغب بشدة في خلاصنا، طالما أن الرسول بولس يعتبر أن هذا الخلاص هو من

---

[101] رو ١٠ :١١-١٣.

[102] رو٣: ٢٩-٣٠.

فيض غناه؟ وبناءً على ذلك. ينبغي على هؤلاء اليهود الآن، ألا ييأسوا، وألاّ يعتقدوا بالطبع أنهم غير مستحقين للغفران، إن كانوا يرغبون حقًا في التوبة، لأن الإبن الذي يعتبر أن غناه يتمثل في كونه يُخلّصنا، لن يتوقف عن أن يكون غنيًا، وهو يُظهِر غناه أيضًا، عندما يُرسِل العطية للجميع بوفرة. ولأن ما يغضبه بشكل خاص هو أن الأولوية في الاختيار كانت لهم، وكانوا يتفوقون على كل المسكونة، إلا أنهم نزلوا من هذه العروش، لأن الإيمان الآن هو بالمسيح (وليس بالناموس)، ولا يوجد الآن ما يُميّزهم على غيرهم، لذا فالرسول بولس يقدم لهم دائمًا ما قاله الأنبياء وكرروه عن هذه المساواة " *وَكُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُخْزَى*"[١٠٣]. " *وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ يَنْجُو*"[١٠٤]. وفي كل موضع يُشير إلى عبارة **"كل من"، لكي لا يعترضوا.**

لا يوجد شيء أكثر سوءًا من الزهو أو الكبرياء، لأن هذا الكبرياء قد أهلكهم أكثر من أى شيء،. ولهذا قال لهم المسيح له المجد " كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْدًا بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَالْمَجْدُ الَّذِي مِنَ الإِلهِ الْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ؟ "[١٠٥]. هذا الكبرياء والذي يحمل معه الهلاك، يستحق أيضًا كثيرًا من السخرية، حتى قبل الدينونة الأخيرة، ويحمل في طياته الكثير من الشرور في هذه الحياة الحاضرة، وإن شئت، فلابد أن تفهم هذا جيدًا، وخاصةً بعدما تركنا أولاً الفردوس الذي طُردنا منه بسبب هذا الكبرياء، ليتنا ننتبه إلى كل هذا. فهل هناك ما يكبّدنا

---

[١٠٣] رو ٩:٣٣.

[١٠٤] يوئيل ٢:٣٢.

[١٠٥] يو ٥:٤٤.

خسائر أكثر من هذا الكبرياء؟ وماذا يمكن أن يوجد أكثر قبحًا وأكثر صعوبة من هذا التباهي؟ لأنه من المؤكد أن مرض المجد الباطل يُكلّف الإنسان الكثير، وهذا صار واضحًا من سلوك الذين ينفقون أموالهم في أمور لا فائدة منها، ولا هدف لها، في المسارح، وسباقات الخيل، وفي إسراف غير لائق، وصار واضحًا أيضًا من سلوك الذين يُشيّدون بيوتًا فخمةً باهظة التكاليف، والذين يسعون بكل الوسائل لتكوين ثروة بلا نفع أو فائدة.

وكون أن المُصاب بهذا المرض، هو كثير الاسراف، ومضطر أن يصير خاطفًا وطمّاعًا، فهذا بالطبع أمر واضح لكل أحد. لأنه لكي يستطيع أن يقدم طعامًا لهذا الوحش (شهوة المجد الباطل)، فهو يمد يده إلى ثروات الآخرين. وماذا أقول عن الثروات؟ فليس الأموال فقط، بل أيضًا نفوسًا كثيرة تلتهمها هذه النار هنا، وهو يؤدي إلى الموت ليس فقط في الحاضر، بل وفي المستقبل أيضًا. لأن المجد الباطل يقود إلى جهنم، وهو الذي يُشعل نار جهنم بقوة. وبسببه أيضًا ستصير هذه النفوس غذاءً للحشرات السامة. وبالطبع يمكن للمرء أن يرى أن هذا المجد الباطل يسود بين الأموات، وماذا يمكن أن يوجد أسوأ من هذا؟ لأن كل الشهوات تبطل بعد الموت، ولكن شهوة المجد الباطل، فإنها تصارع بعد الموت أيضًا، وتحاول أن تُظهر طبيعتها في الجسد الميت. لأنهم حين يَتركون وصية أن تُشيَّد لهم قبورًا فخمة عند موتهم، ويُنفقون كل ثروتهم، بل ويحرصون على جمع أموال كثيرة قبل أن يموتوا، وذلك من أجل نفقات الدفن، بينما وهم بعد أحياء، تجدهم يحتقرون الفقراء الذين يقتربون منهم من أجل فلس واحد، وقطعة خبز، إلاّ أنهم

بمجرد أن يموتوا، يصيرون مائدة غنية للديدان. ماذا يمكن أن تقول عن هذا الطغيان المستبد. وعن هذا المرض (المجد الباطل). إن هذا الشر يُفرز ولع فاسد وغير مقبول، إذ أن شهوة المجد الباطل، قد ألقت بالكثيرين في الزنا، لا من حيث جمال الوجه، ولا الشهوة الجسدية، بل لأنهم يريدون أن يفتخروا بأن فلانة قد أوقعوا بها، وزنوا معها.

ولماذا ينبغي أن أتكلم عن الأمور الأخرى، فإن قدر كبير من الشرور نبتت من هذه الشهوة؟ لأنني أُفضّل أن أصير عبدًا لعدد كبير من البربر، على أن أُستَعَبد مرة واحدة، للمجد الباطل. خاصةً وأن هؤلاء البربر لا يأمرون الأسرى بالخضوع لهذه الشهوة، بينما هذه الشهوة تأمر رعاياها بالخضوع لها. إذًا بحسب ما تأمر به هذه الشهوة: أنت مضطر أن تكون عبدًا للجميع، سواء كانوا أعلى منك أو أقل.

إنها تقول لك: إحتقر النفس، لا تعتني بالفضيلة، إسخر من الحرية، ضحي بخلاصك. وإن صنعت صلاحًا ما، لا تصنعه لكي تكون مرضيًا أمام الله، بل لكي تظهر أمام الجميع أنك صالح، حتى تفقد المكافأة بسبب هذا كله. وعندما تمارس أعمال رحمة أو تصوم، فلتعاني من المتاعب، بل واحرص على أن تخسر الربح.

ماذا يمكن أن يوجد أقسى من هذه الأوامر؟ فمن هذه الشهوة (أى المجد الباطل)، يأتي الحَسَد، ويأتي اليأس، ومنها تبدأ الشرور والبخل. لأن جموع الخدم والبربر المزينين بالذهب، والطفيليين والمنافقين، والعربات المطلية بالفضة، والأمور الأخرى والتي هى

مثيرة بالأكثر للسخرية، لا تحدث بسبب اللذة، ولا بسبب إحتياج ما، بل فقط بسبب المجد الباطل.

المجد الباطل

بيد أنه من حيث إن هذه الشهوة تعتبر شهوة رديئة، فهذا واضح لكل أحد. لكن كيف يمكننا أن نتجنبها، هذا ما يجب أن يقوله لنا القديس بولس. سنبدأ بداية رائعة من أجل التغيير أو التصحيح، لو أنك أقنعت نفسك جيدًا، أن هذا الداء ـ أي شهوة المجد الباطل ـ هو داء مُفزع. لأن المريض أيضًا سيطلب الطبيب على وجه السرعة، إن علم أنه مريض. أما إن كنت تطلب أو تبحث عن طريقة أخرى لتجنب هذه الشهوة، فيجب عليك أن تتطلع دومًا نحو الله، وأن تكتفي بالمجد الإلهي. وحتى وإن كنت ترى بعد أن الشهوة تُداعبك أو تدغدغ إرادتك، وتُحركك للتحدث بفخر عن إنجازاتك لمن هم شركائك في الإنسانية، وطالما أنك تفكر مرة أخرى، في كيف يمكن أن تستعرض ذلك، وأنه لا ينتج من ورائها أي ربح، فعليك أن تمحو هذه الرغبة الفاسدة، وقل لنفسك ها إنكِ تعبتِ كل هذا الزمان حتى لا تبوحِ بإنجازاتك، وأنتِ لم تحتملي أن تحتفظي بها سرًا، بل ها هي قد أُعلنت للجميع، فماذا تحقق لكِ، أكثر مما أنتِ عليه هنا؟ بالطبع لا شيء، بل خسارة وأكثر من خسارة، إذ أنك تُفرِغ كل ما جُمع بجهد وتعب كثير.

لكن مع كل هذا، فكّر في أن قرار الكثيرين وحكمهم، هو قرار وحكم خاطئ، وليس فقط خاطئًا، بل إنه سريعًا ما يزول. لأنه وإن كانوا قد أُعجبوا بك للحظة، فعندما يعبر الوقت، فإنهم ينسون كل شيء، وهكذا يكونوا قد خطفوا الإكليل

الذي أعطاه الله لك، ولم يستطيعوا أن يحتفظوا لك بالإكليل الخاص بهم. وإن افترضنا أن هذا الإكليل باق، فسيكون من يُبدّل إكليله بإكليلهم، هو شخص تعس جدًا، أما عندما يتحطم هذا الإكليل، فأى مُبرر سنُعطي، طالما إننا نُسلّم الذي يبقى من أجل الزائل، ومن أجل أن ننال مديح القليلين، نفقد كل هذه الخيرات الكثيرة؟ وحتى وإن كان الذين يمتدحوننا هم كثيرون، فإننا هكذا سنكون مستحقين للعذاب، وبالأكثر في الوقت الذي يمدحوننا فيه. ولكن إن كنت تشك فيما قيل، فاسمع المسيح له المجد حين يُدين هذا. " وَيْلٌ لَكُمْ إِذَا قَالَ فِيكُمْ جَمِيعُ النَّاسِ حَسَنًا"[106]، وهذا كلام له ما يبرره. لأنه لو كان يجب على الصنّاع أن يطلبوا مُقيّمين أو قضاة لكل عمل، فكيف تسمح للناس أن يراقبوا الفضيلة، ولا تسمح لله الذي يعرف كل شيء، قبل الجميع وأكثر من الجميع، والذي يمكنه أن يُدين، وأن يُكلل؟ لنكتب هذه العبارة إذًا على الجدران، وعلى الأبواب، ولنرددها في آذاننا، ونكررها في أنفسنا دائمًا: **ويل لنا إذا قال فينا جميع الناس حسنًا**.

وهؤلاء الذين يمتدحونك، هم بالحقيقة الذين يذمونك فيما بعد ويقولون عنك إنك محب للمجد الباطل والعظمة، وإنك تشتهي مديحهم بشكل مُبالغ فيه. أما الله فلا يفعل هذا، بل عندما يراك تشتهي مجده، فهو يمتدحك في ذلك الوقت ويصنع معك معجزات، ويُكللك. وعلى العكس من ذلك فإن الإنسان لا يفعل هكذا، بل يعتبرك عبدًا بدلاً من حرًا، وكثيرًا ما يمتدحك مدحًا كاذبًا فقط وبكلام ساذج، ويكون قد إختَطَف منك الأجر الحقيقي

[106] لو٦:٢٦.

واشتراك، بل وبالأكثر جعلك عبدًا. لأن العبيد يخضعون لسادتهم بعد أن يصدروا لهم أوامرهم، أما أنت فتصبح عبدًا بدون أوامر. لأنك لا تنتظر أن تسمع شيئًا من الذين يمدحونك، بل بدون أن يصدروا لك أوامرهم، فأنت تفعل كل شيء يُسعدهم. إذًا ألا نكون مستحقين لهذا القدر من الجحيم، حين نُفرِح الأشرار، ونخضع لهم حتى قبل أن يأمرونا، بينما الله الذي يحثنا وينصحنا كل يوم، لا نسمع له؟

ولكن إذا كنت تشتهى المجد والمديح إشتهاءً شديدًا. فعليك أن تتجنب مديح الناس، وعندئذٍ ستنال المجد. احتقر الكلام المنمق، حينئذٍ ستتمتع بمديح كثير من الله ومن الناس أيضًا. لأن مَن يحتقر ويزدري المجد الباطل هو عادةً الذي نمجده ونمتدحه ونُعجب به. فإذا نحن إحتقرنا المجد الباطل، فبالحري جدًا سيُمجدنا إله الكل، وعندما يُمجدك الله ويمتدحك، فمن ذاك الذي يمكن أن يكون أكثر سعادة منك؟ وبالحقيقة فإنه بقدر إتساع المسافة بين المجد والإزدراء، هكذا يكون الفرق بين المجد الإلهي، والمجد الإنساني الباطل، شاسعًا جدًا ولا نهاية له. فإذا كان المجد الإنساني الباطل سيئًا ورديئًا، حتى عندما لا يُقارن بشيء، أو عندما نفحصه بالمقارنة مع شيء آخر، ففكّر إذًا في مدى القبح الذي سيظهر منه. فهو مثل المرأة الزانية تمامًا، حتى ولو كانت تُقيم في منزل، إلاّ أنها تعرض نفسها للآخرين، هكذا أيضًا عبيد المجد الباطل. وربما هم أسوأ من هذه المرأة الزانية، لأن مثل هؤلاء النساء كثيرًا ما يحتقرن شخصًا يكون قد اشتهاهم، بينما أنت قد عَرضتَ نفسك للجميع، لمجرمين ولصوص، ولسارقي

الأموال. لأن هؤلاء وأشباههم يمثلون المتفرجين الذين يمتدحونك. وهؤلاء الذين عندما يكونون متفرقين بعيدًا، لا تعتبرهم مستحقين شيئًا على الاطلاق، لكنهم عندما يجتمعون معًا، تُفضّلهم على خلاصك، وتقدم نفسك مُجردًا من المجد أكثر من كل هؤلاء.

بالحقيقة كيف لا تكون مُجردًا من المجد، أنت يا من تحتاج للمديح من الآخرين، وهل تعتقد إنك لو أخذت المجد من آخرين سيكون هذا مفيدًا لك؟ ألم تفكر، بالإضافة إلى كل ما قيل، كيف أنهم عندما ينظروا إليك من كل جانب، حين تصبح معروفًا للجميع، أنه سيكون أمامك عددًا لا يُحصى ممن يدينونك إذا ما أخطأت، بينما حين تكون غير معروف، ستبقى في أمان؟ نعم - هكذا يقول - وحين أُحقق إنجازات، سيكون لديّ مُعجبين لا حصر لهم. إنه لأمر مخيف حقًا، ليس فقط حين تُخطئ، لكن أيضًا حين تُحقق إنجازات، فإن مرض المجد الباطل سيؤذيك. لقد طرح الكثيرين أرضًا من قبل، والآن ينزع عنك كل أجرك.

فاشتهاؤك بشدة للأمور المادية العالمية، يُعَد أمرًا مُخيفًا ومُخزيًا للغاية، لكن حين تُصاب بنفس المرض في الأمور الروحية، فكيف تتوقع أن يُغفَر لك، إذا كنت لا تريد أن تقدم لله قدرًا من الكرامة التي تنالها أنت ذاتك من الخدم؟ لأن العبد يتطلع إلى عَينيّ سيده، والعامل إلى عَينيّ صاحب العمل الذي سيدفع الأجر، والتلميذ إلى مُعلّمه، بينما أنت تفعل العكس تمامًا، عندما تترك الرب الذي أسند إليك عمله مقابل أجر، وتتطلع إلى بشر مثلك، على الرغم من أنك تعلم أن الله لا ينسى لك في الدهر الآتي ما قد حققته، بينما الإنسان يذكره لك هنا في الحاضر، وبالرغم من أن

لك شهودًا يجلسون في السماء، فإنك تجمع حولك شهودًا أرضيين. إن الشخص الرياضي يكون متميزًا عندما يدخل في منافسة، بينما أنت وإن كنت تجاهد، إلاّ أنك تحاول أن تُتوَّج في الأرض. وهل هناك غباء أسوأ من ذلك؟

والآن لنرَ إن كنت تُريد هذه الأكاليل. واحد منها هو من الغباء، والآخر من حَسَد الغير، وبعضها من السخرية والتملق، وآخر من المال، وغيره من الخدمة الدنيئة. وكما أن الأولاد عندما يلعبون يضعون تاجًا من العشب، فوق رأس واحد منهم، دون أن يدري، ثم يسخروا منه من الخلف، هكذا الآن أيضًا. فإن الذين يمتدحونك، كثيرًا ما يهزأون بك في داخلهم، واضعين عليك تاجًا من عشب. وليت تاج العشب فقط، بل يكون مملوءً بالأضرار. ويدمر كل ما حققته من إنجازات. إذًا طالما أنك تفكر في مدى تفاهة هذا التاج، فلتتجنب الخسارة، أو الضياع. كم عدد مَن ترغب في أن يمتدحونك؟ هل مائة أم مائتان، أم ثلثمائة أم أربعمائة؟ وإن أردت، احسب عشرة أضعاف هؤلاء، أو عشرين ضعفًا، وليكونوا ألفين أو أربعة آلاف، بل ليكونوا عشرة آلاف إن شئت، ممن يُصفقون لك، لكن هؤلاء لا يختلفون كثيرًا عن الطيور التي تصيح من أعلا، أو من الأفضل أن نقول، لو تأملت مسرح الملائكة، سيظهر هؤلاء أنهم لا يمثلون أي شيء، وأنهم أقل من الحشرات، ومديحهم أضعف بكثير من العنكبوت، والدخان، والأحلام. اسمع القديس بولس، الذي فكّر في هذه الأمور باهتمام، فهو لا يتوقف عند رفض هذه الأمور فقط، بل لا يتمناها

مطلقًا، قائلاً: " وَأَمَّا مِنْ جِهَتِي. فَحَاشَا لِي أَنْ أَفْتَخِرَ إِلاَّ بِصَلِيبِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ"[١٠٧].

فلتتمثل أنت أيضًا بهذا الافتخار، لكي لا تُغضب الرب. لأنه حين تسعى نحو المجد الباطل، فإنك تزدري بالله، وليس بنفسك فقط. فإن كنت رسّامًا وتتلمذت على يد آخر، وحدث فيما بعد أنه أهمل أن يوضح لك فنه، ووضع اللوحة في الخارج للعابرين فقط، فإنك ستعاني من هذا الأمر في هدوء. فإن كان هذا الأمر يُعَد بالنسبة للبشر الذين هم مثلك، إهانة، فبالأكثر جدًا يكون للرب. وإن أردت أن تتعلم احتقار المجد الباطل بطريقة أخرى، فلتصر أسمى في الفكر: إحتقر الأمور المرئية، إجعل حبك أكبر للمجد الحقيقي، وإمتلئ بالفكر الروحي، قل لنفسك كما قال الرسول بولس: " أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّنَا سَنَدِينُ مَلاَئِكَةً؟"[١٠٨]. وبعدما تسمو هكذا، وبّخ نفسك بعد ذلك، وقل لها، أنتِ يا من ستدينين ملائكة، هل تريدين أن تُدانين ممن لا قيمة لهم، وأن تُمتَدحى مع راقصين، وممثلين، ومصارعي وحوش، وقائدي العربات التي تجرها الخيول؟ لأن هؤلاء يسعون نحو هذا المديح.

لكن أنت فلتسمُ فوق صيحاتهم، ولتحاكِ ساكن الصحراء (يوحنا المعمدان)، وتعلم كيف أنه ازدرى بذلك الجمع، وعندما تملقوه، لم يتغير، بل على النقيض عندما نظر كل سكان فلسطين قد جاءوا إليه وأُعجبوا به وبقوا في دهشة منه، لم يقبل هذه الكرامة العظيمة جدًا، بل غضب في مواجهتهم، وتحدث مع

---

[١٠٧] غلا٦:١٤.

[١٠٨] ١كو٦:٣.

هذا العدد الكبير، كما لو كان يتكلّم مع طفل صغير، هكذا وبّخهم قائلاً: "يَا أَوْلاَدَ الأَفَاعِي"[١٠٩]. وإن كان من المؤكد أنهم تجمَّعوا وتركوا مدنهم من أجله، لكي يَروا هذه القامة الروحية المقدسة، لكن لا شيء من كل هذا قد فتَنه، لأنه كان بعيدًا عن المجد الباطل، وحرًا من كل تباهي أو إفتخار. وهكذا أيضًا إسطفانوس، وهو ينظر لنفس الشعب، الذي لم يكن يُكرّمه، بل كان في حالة هياج شديد ضده، ويصّر بأسنانه، وبعدما سمَا فوق هياجهم وغضبهم قال: " *يَا قُسَاةَ الرِّقَابِ، وَغَيْرَ الْمَخْتُونِينَ بِالْقُلُوبِ*"[١١٠]. وهكذا إيليا أيضًا، فبينما كانت تلك "القوات حاضرة[١١١]، وأيضًا الملك، وكل الشعب قال: " *حَتَّى مَتَى تَعْرُجُونَ بَيْنَ الْفِرْقَتَيْنِ؟*"[١١٢]. لكن نحن نتملق الجميع، نخدمهم ونحن نستغل حبهم للكرامة. ولهذا تداخلت كل الأمور وتشوشت. وإبتعد المسيحيون عن إحتقار المجد الباطل، وكل شيء أُهمِلَ من أجل مديح الكثيرين.

إذًا فلنقتلع شهوة المجد الباطل من الجذور، وعندئذٍ سنعرف جيدًا معنى الحرية، وسنصل إلى الميناء، حيث التمتع بالهدوء. لأن مُحِب المجد الباطل يُشبه أولئك الذين هم في وسط الأمواج والعواصف، فهو يرتعب على الدوام ويخاف ويخدم سادة كثيرين، بينما مَنْ هو موجود خارج هذا القهر، فإنه يُشبه الذين يجلسون في الموانى ويتمتعون بحرية واضحة. أما مَن يسعى للمجد الباطل فليس

---

[١٠٩] مت٣:٧.

[١١٠] أع٧:٥١.

[١١١] انظر ١مل١٨:٢١.

[١١٢] ١مل١٨:١٩.

كذلك، بل يضطر أن يصير عبدًا لهذا الحشد الكبير من السادة الذين أصبح معروفًا لديهم. إذًا كيف سنتحرر من هذه العبودية المخيفة؟ نتحرر منها، حين نسعى نحو التمتع بمجد آخر، نحو المجد الحقيقي. لأنه كما أن أولئك الذين يشتهون الوجوه البشرية، عندما يظهر وجه آخر أكثر إشراقًا، فإنه يُبعدهم عن الوجه السابق، هكذا بالضبط أولئك الذين يشتهون المجد البشري، عندما يشرق عليهم المجد السمائي، فإن هذا المجد يستطيع أن يبعدهم عن ذلك المجد البشري.

فلنَحذَر ونحترس من المجد الباطل، ولنختبر بهاء المجد السمائي، حتى أننا بعدما نتمتع بجماله، نتجنب قبح المجد الباطل، مختبرين على الدوام متعة ولذة هذا المجد السمائي.

المصالحة في المسيح



مقدمة

التقليد الكنسي الذي تناول موضوع المصالحة، أي مصالحتنا مع الله في المسيح، أو موضوع خلاصنا أو تبريرنا في المسيح، لم يُناَقش بالقدر الكافي من قِبَل لاهوتي الشرق، على عكس الموضوعات العقيدية الأخرى التي كانت موضع اهتمامهم وأبحاثهم. ولهذا لا نجد تعليمًا محددًا بخصوص موضوع المصالحة عند الآباء، بل كان يُنظَر إليه في إطار التقليد بشكل عام. وهذا يُفسِر الاختلاف الذي يمكن أن نلاحظه بين اللاهوتيين المعاصرين في بعض النقاط الخاصة بالتعليم عن المصالحة، وبين تلك التعاليم الموجودة في النصوص الآبائية، وأيضًا في الأسس اللآهوتية للحياة السرائرية الأرثوذكسية.

إن التعليم "عن المصالحة" فيما يختص بحياة المسيح وخدمته وعمله ورسالته الخلاصية، يُعبرَ عنه في الشرق بصيغ خاصة بالتحول من حالة إلى حالة أخرى مُغايرة تمامًا، من حالة الأَسر للخطيَّة والموت، إلى حالة النصرة على الخطية والموت، والإنتصار على الطبيعة القديمة، على إنساننا العتيق. هذا التحوّل قد تحقَّق بالذبيحة التي قُدِمت تكفيرًا عن خطايا العالم، وبالإعلان عن محبة الله الفائقة، وحكمته التي لا يعبر عنها. وفي كل الصيغ التي يستخدمها الآباء، يوجد توجّه واحد، وإطار فكري واحد. فالمصالحة بحسب تعليمهم هي أمر يرجع إلى مبادرة من جانب الله، الهدف منها، هو خلاص جنس البشر. وقد رفض الآباء تلك الآراء التي كانت تُنادي بإن تجسَّد **الكلمة**، كان من أجل مصالحة البشرية بالله الآب، والتي تمت بين رحمة الله وعدله. مثل هذا

التوجه، ليس له وجودًا في حقل التعاليم اللاهوتية الأرثوذكسية[113].

موقف التعليم اللاهوتي في القرون الخمسة الأولى، إزاء هذا الموضوع، تُنادي بأن عمل الخلاص يتكون من ثلاث مراحل، وهى التي أعادها المسيح بالتتابع: الكائن (τό ὄν)، الكائن الطوباوي (τό εὐ ὄν)، الكائن الأبدي (τό ἀεί ὄν).

المرحلة **الأولى:** عادت بالتجسد، **والثانية**: أُعيدت من خلال حياة المخلص التي عاشها على الأرض، والتي وصلت إلى قمتها على الصليب. **والثالثة:** تحققت بقيامة المسيح. وهذا عينه ما عبَّر عنه القديس بولس البوشي في القرن الـ ١٣، إذ تحدث عن هذه المراحل الثلاثة، فذكر الكائن، والكائن الحسن، والكائن الأبدي[114].

التعليم اللاهوتي الشرقي عندما يتحدث عن "المصالحة" فإنه يتبع التعاليم الابائية التي تتحدث عن خلق العالم، وعن أهمية إتحاد الإنسان بالله، وعن الهدف النهائي الذي يشتهي الإنسان تحقيقه، وهو التأله (أى الكمال وحياة عدم الفساد)، كذلك التعليم عن ضرورة وحتمية تحقيق خطة التدبير الإلهي، والتي كان ينبغي تتميمها بسبب سقوط الإنسان.

إستخدام هذا المصطلح: "المصالحة" عند الآباء، يُقصَد به التجديد أو الميلاد الثاني، وعودة الإنسان والعالم كله إلى الحالة الأولى. لكن كيف هُزِمت الخطية، وكيف أُخضعت إرادة الإنسان المتمردة في شخص المسيح، وفقًا لتعليم الآباء؟ لقد هَزَمَ المسيح الخطية بحياته، بخضوعه للآب، وبمحاربته الجهل الديني

---

[113] Χ. Ανδροὺτσου (Δογματικη) Εν Αθηναις. 1907, 6. 199.

[114] « ο Μέγας Αθανὰσιος ως πηγη της θεολογίας του Bulus Al Busi Jozef Faltas, Αθήνα, 1994, σελ. 191.

والأخلاقي "في عظاته". وأيضًا بغفرانه للخطايا، وبالإخلاء بشكل عام، وبالموت على الصليب بشكل خاص. بحسب تعليم القديس إيريناؤس فإن [المسيح بواسطة الموت، موت الصليب وطاعته، غفر العصيان الأول][115]. وبحسب القديس باسيليوس فإن [أنشودة التعليم الإلهي الجديدة والمتجددة، هي التي تُجددنا، مثلما يجدد النسر شبابه، وعندما يفنى الإنسان الخارجي، فإنه يتجدد يومًا بعد يوم][116]. إن تعليم المسيح له معنى خلاصي شديد الأهمية للكنيسة المنقادة بروح الله.

لذلك فقد شدَّدت التعاليم اللاهوتية الابائية في مُجملها، على ضرورة تحرير الإنسان بالروح من ظلمة الخداع والجهل. فطبيعة الإنسان بصفة عامة في إحتياج للتربية الروحية، وتحتاج أن تتعلم كيفية السلوك في طريق الفضيلة، الذي يقود إلى الحياة الأبدية[117]. لقد نظر الآباء إلى حالة الإبن المتجسد في ضوء الإخلاء الإلهي، وهذا ما أكسب فكرهم رؤية مستنيرة خاصة بأهمية وحتمية ذبيحة الصليب. فالخلاص يأتي من داخل الإتضاع، والحياة تأتي من داخل الموت، وتجاوب الإنسان مع نعمة الله، يُسمى إيمانًا، لكنه إيمان عامل بالمحبة، كما يقول القديس بولس. هذا يتطلب عملاً مشتركًا بين نعمة الله، وقبول الإنسان لهذه النعمة، أي الاستجابة لنداء الروح القدس من خلال أعمال محددة ومواقف مُعلنه تؤكد هذه الاستجابة، وهذا يتجلى في قدرة

---

[115] الكرازة الرسولية، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، د. جورج عوض، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، فقرة ٣٤، ص١٠٠.

[116] Μ. Βασιλείου Ομιλ. είς ψαλμ. 32 PG 29, 328.

[117] Γρηγ. Νυσσης, Λόγος κατηχητικός PG 45, 48.

الإنسان على المحبة. **لكن إذا كان التأكيد على أهمية العمل المشترك بين نعمة الروح القدس، وإرادة الإنسان هو من الأهمية بمكان، من أجل تتميم رسالة الخلاص والتمتع بها، فإن قوة الله تظل وحدها، هي التي تُعطينا الإمكانية للنصرة على الخطية.** فالغفران الممنوح لنا من الله، كما يشرحه الآباء، هو عمل الله، لكنه عمل يكتمل بالمشاركه الإيجابية من جانب الإنسان. وهكذا بيّن الآباء أهمية المشاركة من جانب الإنسان، إلاّ أنهم شددوا في نفس الوقت على أن هبة الحياة والنصرة على الخطية، هو عمل الله وحده، كما يقول القديس إيريناؤس [لقد صار إبن الله ابن داود وإبن ابراهيم وجمع الكل في ذاته لكي يمنح لنا الحياة. كلمة الله صار جسدًا من العذراء. حتى يبطل الموت ويُحيي البشر][١١٨]. أيضًا يقول القديس أثناسيوس [لا تقدر التوبة أن تغيّر طبيعة الإنسان، بل كل ما تستطيعه هو أن تمنعه عن أعمال الخطية. فلو كان تعدي الإنسان مجرد عمل خاطئ ولم يتبعه فساد لكانت التوبة كافية][١١٩]. ولهذا السبب فإن موت المسيح، لا يُعتبر فقط، قمة الإخلاء الإلهي، لكنه يُمثل الغلبة التي استُعلنت في عمل الخلاص، "بالموت داس الموت". المسيحية عند الآباء، تتجلّى في الصليب، فالإيمان الراسخ لدى المسيحيين يتمثل في أن قيامة المسيح، وإن كانت تُمثل أهم حدث في حياة المسيح وعمله، وهذا أمر حقيقي، إلا أنها تكشف قوة الصليب وتُظهره[١٢٠]. لقد مات المسيح من أجلنا كما يقول القديس أثناسيوس: [فإن الكلمة اخذ

---

[١١٨] الكرازة الرسولية، مرجع سابق، فقرة ٣٧، ص١٠٣.

[١١٩] " تجسد الكلمة" ، مرجع سابق، الفصل السابع. ص ١٩.

[١٢٠] P. 1- 5. on the tree of the cross"G. Florovsky

الدينونة على نفسه وبتألمه لأجل الجميع بالجسد. وهب الخلاص للجميع]"[١٢١].

فموت المسيح، هو ذبيحة عن خطايانا، وهو في نفس الوقت إنتصار لابن الله على الشيطان، وعلى الفساد، وعلى الموت. ويؤكد الآباء الشرقيون في كتاباتهم على هذين العنصرين. أي "الذبيحة" و"النصرة"، مع التشديد على عنصر "النصرة". نصرة المسيح على القوات المضادة.

وبحسب تعاليم الآباء أيضًا، فإن خلاص جنس البشر قد بـ بالتجسد. فالتجسد هو الأساس بالنسبة للخلاص. فالله وحده هو الذي لديه القدرة على أن يُبيد القوات التي أمسكت البشر في الأَسر، لأن الإنسان عاجز على صنع هذا الأمر لذاته بقدراته الخاصة. لقد فهم الآباء موضوع الخطية كموضوع كياني، ليس فقط كمخالفة للوصية الإلهية، بل كتغرب عن الله وفساد للطبيعة. الخطية بهذا المعنى تحمل الموت، ولا يمكن أن تنفصل عن معنى الموت، ونتيجة لهذا الفهم الخاص لمعني الخطية، فإن آباء الكنيسة المعلمين، لا يواجهون أي مشكلة، عندما يُشددون على غلبة المسيح على الخطية وعلى الموت، فقد قدم ذاته كذبيحة لأجل خلاصنا وغفران خطايانا. فكل عمل الله في المسيح، هو عمل صفح وغفران، وتجديد. وبهذه الطريقة فإن التعاليم الأرثوذكسية، ودون أن تُعطي للخطية أهمية ثانوية، تقف بعيدًا عن أي تفسير أخلاقي للخلاص.

---

[١٢١] "المقالة الأولى ضد الأريوسيين" للقديس أثناسيوس، المرجع السابق، صـ ١٣٩ فقرة ٦٠.

الحياة السرائرية للكنيسة الأرثوذكسية، تُبنى على هذه الأساسات اللاهوتية، وتعبر عن هذه الأفكار ذاتها في كل إفخارستيا، حيث يأتي المسيح إلى العالم، ويُبشر بإنجيل الخلاص، لكن آلامه لا تحمل فقط سمات الذبيحة، بل تحمل ملامح النصرة على الفساد والموت. **الكنيسة الأرثوذكسية لا تفصل في صلواتها بين الصليب والقيامة**، لأن قبول المسيح لذبيحة الصليب، هو الذي قاد إلى القيامة. في هذا السر، سر النصرة، أي سر الصليب والقيامة، لا تقدم الكنيسة المصلوب وهو يصارع فوق الصليب، بل تُقدمه وهو في حالة هدوء وسلام، لكي تؤكد على أن المسيح قد أصرَّ على أن يُقدم ذاته بإرادته. ونحن في كل مرة نتناول فيها جسد ودم المسيح، يقول الكاهن لكل عضو يأتي إلى التناول "جسد ودم يسوع المسيح إبن إلهنا، يُعطىَ لمغفرة الخطايا وحياة أبدية لمن يتناول منه. فالإفخارستيا تُوصف بأنها "دواء الخلود".

نخلص من كل هذا، بأن التعاليم اللاهوتية الأرثوذكسية بشأن المصالحة، تُركّز على عنصرين هامين:

١ـ التشديد على الملمح الخلاصي للتجسد.

٢ـ النصرة على الخطية والموت، بالصليب والقيامة.

لقد أشارت بعض النصوص الكتابية في العهد الجديد لموضوع المصالحة، كما جاء في (٢كو٥:٦ـ ٢٠)، (أف٢:١١ـ ٢٢)، (لو١٥:١١ـ ٣٢)، وقد تناول الآباء هذه المقاطع بالشرح والتفسير على هذا النحو: فعند التعرَّض لهذا الجزء من (٢كو ٥:٦ـ٢٠) ينبغي أن نُشير إلى التفسير الذي يُقدمه الآباء لمصطلح جسد "Σάρκα"

لكي نفهم المعنى الخاص بهذه الآيات. حين يتطرّق القديس يوحنا ذهبي الفم لموضوع الخطية، فإنه يربط بين الجسد وبين الخطيّة، إذا ما تعلق الأمر بنا نحن، أما فيما يتعلّق بالمسيح، فإن الجسد في هذه الحالة يرتبط فقط بالاحتياجات الطبيعية، وليس بالخطية"[١٢٢].

أما من حيث الطريقة التي تمت بها المصالحة، مصالحة الإنسان بالله في المسيح، فقد شددّ الآباء على أن المصالحة هي عمل الله، وهذا ما قاله الرسول بولس: "إِنَّ اللّهَ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ"[١٢٣]. هكذا يقول القديس يوحنا ذهبي الفم [لسنا نحن الذين اتجهنا إلى الله، لكنه هو الذي دعانا. وكيف دعانا؟ لقد دعانا بذبيحة المسيح][١٢٤]. إن دينونة الله للبشر كانت تعني الموت، وبدلاً من الموت، أرسل الله نعمته إلى العالم في شخص ابنه. فخلاصنا هو عمل الله في المسيح، وكان يجب أن نموت كخطاة. وأن نُحرم من الشركة المحييّة مع الله، لكن المسيح مات لأجلنا. وأقامنا في حياة جديدة. ولذلك دعى الرسول بولس أهل كورنثوس إلى التجاوب مع عمل الله، كما يتضح من سياق الإصحاح الخامس.

إذًا فالله هو الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح. لقد ذُبح الابن الحقيقي، الوحيد الجنس، وبالرغم من هذا لم يكره الآب الجناة، الذين ليس فقط لم يسمعوا له، بل صلبوا الإبن وقتلوه أيضًا][١٢٥]. هؤلاء الجناه كانوا مستحقين للإدانة وللترك من جانبه،

---

[١٢٢] كما نصلي في القداس الإلهي " شابهنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها".

[١٢٣] ٢كو٥:١٩.

[124] προς κοριν (ΕΠΕ) τομ 19, σελ. 305–307.

[125] προς κοριν (ΕΠΕ) τομ. 19, σελ.307–310.

لكنه فعل العكس تمامًا. وهكذا صار الابن ذبيحة، حتى يُتمم مصالحتنا مع الآب، وعندما صعد المسيح، استأمنا على عمل المصالحة. هذه هي محبة الله التي تتجاوز كل فكر وكل منطق. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد، هو كيف صالح الله العالم لنفسه؟ لقد صالحهم بالصفح عن خطاياهم. وبدون أن يصنع هذا، لم يكن ممكنًا أن تتم المصالحة. ولهذا قال الرسول بولس "غير حاسب لهم خطاياهم". لأن المسيح لم يأت لكي يحاسبنا عن خطايانا، لأنه إذا كان قد فعل هذا، لكنا قد هلكنا جميعًا. ومع هذا وبرغم أن خطايانا كانت كثيرة، فإنه لم يعاقبنا، بل وتصالح معنا، ولم يغفر خطايانا فقط، بل ومحاها تمامًا. ويشرح القديس يوحنا ذهبي الفم عبارة الرسول بولس "جعل الذي لم يعرف خطية. خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه" (٢كو٥: ٢١). قائلاً: [لقد ترك البريء يُذبح عن الخطاة. وجعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، تركه يُدان كخاطئ، وأن يُقتل كملعون، لأنه صُلِبَ، وموت الصليب كان أسوأ من أي موت آخر][126]. الأمر الذي أشار إليه في موضع أخر قائلاً: [أطاع حتى الموت موت الصليب " (في٢: ٨). ولم يكن هذا نوعًا من العقاب فقط، بل كان يُمثل إهانة قاسية. والأهم من كل هذا أنه لم يجعله خاطئًا، بل جعله خطية، وهو الذي لم يُخطئ، ولم يعرف الخطية قط، لكي نصير نحن "بر الله"، وليس فقط مجرد أبرار][127].

أيضًا في شرحه لرسالة أفسس، يُشير القديس يوحنا ذهبي الفم إلى أن الابن قد صنع الصلح بنفسه فهو [لم يرسل ملاكًا ولا

---

[126] προς κοριν (ΕΠΕ) τομ. 19, σελ..310-315.
[127] προς κοριν (ΕΠΕ) τομ. 19, σελ..310-315.

رئيس ملائكة. لأن تصحيح هذا القدر الكبير من الشرور، والتبشير بالسلام، كان يقتضي حضوره الشخصي، إذ لم يكن ممكنًا أن يُرسل أخر. لقد قَبل أن يأتي في مقام الخدام. وبشّر البعيدين والقريبين بالسلام. وهذه نعمة واحدة مُقدمه للجميع، فليس هناك نعمة أقل مُقدَمة للبعض، ونعمة أكثر مُقدَمة للبعض الأخر، فالنعمة واحدة للجميع][128]. لم نعد بعد غرباء عن القديسين، لقد صرنا أهل بيت الله. وما حققه الآباء والأنبياء بجهد ومتاعب كثيرة، تحقق لنا الآن مجانًا، بواسطة النعمة الإلهية.

أما في (لو١٥: ١١-٣٢) فهناك رؤية مشتركة عند أغلب الآباء الشرقيون، فيما يتعلق بمثل الابن الضال، فهم يرون أن الإبن الضال يُمثل العشارين والخطاة الذين قبلهم المسيح وأكل معهم. وان الإبن الأكبر يُمثل الكتبة والفريسيين، المُعتبرَين أبرار من قبل الشعب الذي غضب من المسيح، لأنه كان يقبل الخطاة.

ويشدّد غالبية المفسرين للمثل على العامل الإنساني بشكل خاص، عند الحديث عن سر التوبة. فقرار الإبن الضال بالعودة إلى أبيه، يُمثل مساهمة صغيرة، يجب أن يُساهم بها الإنسان في تتميم خلاصه، وهي بشكل أساسي تُعَد عمل الله داخل الإنسان، فهو يعمل بمعونة النعمة الإلهية. إن الإعتراف بالخطأ من خلال هذا المثل، يجعلنا نتعرف على شخص الله، نتعرف عليه كأب مملوء بالمحبة تجاه الجميع.

الواضح إذًا أن الفكر الآبائي فيما يتعلق بموضوع المصالحة، كان يتجه في مسار رؤية الله كأب مملوء بالمحبة نحو أبنائه.

---

128 Προς Εφαις. (ΕΠΕ), τομ 20, σελ 521–541.

نخلص من كل هذا:

١- أن رؤية الآباء بشأن موضوع المصالحة في العهد الجديد، أي مصالحتنا مع الله في المسيح. لا تنحصر فقط في ذبيحة الصليب، بل إن حياة المسيح كلها تُعتبر واسطة للخلاص.

٢- حين يفسر الآباء بعض المواضع الكتابية التي لها علاقة بموت المسيح، فهم يُعبرون عن قناعة، بأن محبة الله على الصليب، قد سحقت القوات المضادة. فهم لا ينظرون للصليب داخل الإطار القانوني الخاص بموضوع العدل والرحمة، بل إعلان حب ومظهر قوة. يقول القديس إيريناؤس: [لقد صُلب ابن الله لأجل الجميع وطبع علامة الصليب على كل الأشياء. لأنه كان من الضروري لذاك الذي صار منظورًا أن يُظهِر علامة الصليب في كل الأشياء. وهكذا بواسطة شكله المنظور (على الصليب) يصير تأثيره محسوسًا في كل الأشياء المنظورة][١٢٩].

٣- أيضًا عندما يتناول الآباء المعلمين موضوع "المصالحة"، فإنه يستخدمون التعبيرات دون تعقيدات، ويكررون كلمات العهد الجديد كما وردت في هذه النصوص، حتى يؤكدوا على حقيقة الخلاص.

[١٢٩] الكرازة الرسولية، مرجع سابق، فقرة ٣٤، ص١٠١.

المصالحة في المسيح

خدمة المصالحة

يقول الرسول بولس إن الله هو: " الَّذِي صَالَحَنَا لِنَفْسِهِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَأَعْطَانَا خِدْمَةَ الْمُصَالَحَةِ"[١٣٠].

قال هذا لأن المسيح هو مانح كل الخيرات، وهو الذي صالحنا مع الله، والسبب في كل العطايا الأخرى التي وهبها الله لأحبائه لأنه ليس فقط قد أحسن إلينا، تاركًا إيانا لنكون أعداء، بل إنه أحسن إلينا بعدما جعلنا أولاً أحباءه. وعندما أقول أن المسيح هو سبب المصالحة، فأنا أعني الآب أيضًا. وعندما أقول أن الآب هو مانح كل العطايا، فأنا أعني الإبن أيضًا. لأن كل شيء قد صار بمشاركة المسيح له المجد، الله هو سبب هذا الإحسان، لأننا لم نركض نحن نحوه، بل هو الذي دعانا. وكيف دعانا؟ دعانا بذبيحة المسيح. ثم يقول: " وأعطاناخدمة المصالحة". وما يعنيه الرسول بولس بهذه العبارة، تلك الرسالة السامية التي تعهد بها الرسل، مُبيّنًا كيف أنهم قاموا بعمل مهمًا، وأيضًا تُبين محبة الله الفائقة نحو البشر. لأنه لم يغضب، ولا حتى عندما أهان البشر المسيا الذي أرسله، ولم يتركهم، بل بصبر وإحتمال دعاهم هو نفسه، وبواسطة آخرين أيضًا[١٣١].

مَن يستطيع أن يُعبِّر عن هذه العناية الإلهية؟ إذ قدَّم الإبن ذبيحة، فقد آتى ليصالحنا مع الله الآب، وهو الإبن الحقيقي وحيد الجنس، وبالرغم من ذلك لم يَعرِض الله أو يصرف وجه عن الأثمة

---

[١٣٠] ٢كو ٥:١٨.

[١٣١] ويعني بهم الرسل، وبشكل عام كل مَن كان يكرز بكلمة الله.

الذين صلبوه، بل ولم يقل أرسلت إبني لكي يتشفع ويكون وسيط، فهؤلاء ليس فقط لم يريدوا أن يسمعوا له، بل قتلوه وصلبوه، إنهم مستحقين لأن أتركهم، لكنه فعل عكس ذلك فعندما صعد المسيح، أستأمنا على هذا العمل " أعطانا خدمة المصالحة". إذ أن " الله كان في المسيح مصالحًا العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم". أرايت محبة مثل هذه تتجاوز كل حدود المنطق والتفكير؟ مَن الذي أَهين؟ الله. ومَن الذي طلب المصالحة أولاً؟ الله، ومع ذلك أرسل إبنه، يقول لم يأتِ هو نفسه، بل أرسل إبنه، لكنه لم يدعونا الإبن وحده، بل بالإضافة إلى وساطة الإبن، دعانا الآب أيضًا. لذلك قال: " الله كان في المسيح مُصالحًا العالم لنفسه"، أي من خلال تدخّل المسيح ووساطته. ولأنه قال: " أعطانا خدمة المصالحة"، يعود فيضبط هذا الأمر، ويقول لا تعتقدوا، كيف أننا أول مَن قام بهذا العمل، نحن خدَّام، لكن الذي يقوم بكل العمل، هو الله الذي كان في المسيح مصالحًا العالم لنفسه.

وكيف صالحه لنفسه؟ لأن هذا الأمر مُستحق للإعجاب والإندهاش، أي أنه لم يَصر محبوبًا هكذا دون تدخل منه، بل بهذه الطريقة صار محبوبًا، بأي طريقة؟ بأنه لم يحسب لهم خطاياهم. لأنه لم يكن لهذا الأمر أن يتم بطريقة أخرى. ولذلك أضاف: " غير حاسب لهم خطاياهم". لأنه لو أراد أن يحاسبنا على خطايانا، لهلكنا جميعًا، لأن الجميع كانوا تحت حكم الموت، ورغم أن الخطايا كانت كثيرة جدًا، ليس فقط لم يُعَاقِبنا، بل وتصالح معنا، وليس فقط قد غفرها لنا، بل ومحاها تمامًا. هكذا يجب علينا نحن أيضًا أن نغفر لأعدائنا، لكي يُغفر لنا

نحن أيضًا. وأعطانا خدمة المصالحة، لذلك نحن لم نأتِ الأن لكي نضغط على أي أحد، بل لنُصالح الجميع على الله. لأن الكتاب يقول إنهم لم يُطيعوني، فلتُرشدوهم أنتم، حتى يؤمنوا، لذلك أضاف: " إِذًا نَسْعَى كَسُفَرَاءَ عَنِ الْمَسِيحِ، كَأَنَّ اللهَ يَعِظُ بِنَا. نَطْلُبُ عَنِ الْمَسِيحِ: تَصَالَحُوا مَعَ اللهِ"[١٣٢]. أرايت كيف أنه قد أبطل كل سوء فهم متوقع، مُقدمًا المسيح على أنه صاحب هذه الرسالة أو مَن يتعهد بهذه الرسالة؟ بل من الأفضل أن نقول ليس فقط المسيح، بل والآب أيضًا؟ فما يقوله يعني الآتي: الآن قد أرسل الإبن، لكي يدعوا البشر، ويتوسط لهم، وعندما مات بالجسد، وصعد إلى السموات، تعهدنا نحن بهذه الوساطة، ودعوناكم في إسم المسيح وإسم الآب. إلى هذا الحد الكبير، كرَّم جنس البشر، حتى أنه أرسل إبنه الوحيد، بالرغم من أنه كان يعرف، بأنه سيموت، بل وجعلنا نحن رسلاً له. حتى أنه بالصواب قال: "واضعًا فينا كلمة المصالحة. إذًا نسعى كسفراء عن المسيح". أي وكلاء عن المسيح، لأننا تعهدنا أن نقوم بعمله. وإن كان هذا يبدو لك بأنه أمر هام جدًا، إسمع الكلام التالي الذي يُبين به، بأننا نُمارس هذا العمل كوكلاء، ليس فقط عن الإبن، بل وعن الآب أيضًا. لذلك أضاف: "كأن الله يعظ بنا". وبناء على ذلك لم يدعوننا من خلال وساطة الإبن فقط، بل بوساطة أولئك الذين تعهدوا أن يُكملوا هذا العمل. إذًا لا تعتقدوا ـ هكذا يقول ـ إننا نحن الذين نطلب منكم أي شيء، فالمسيح نفسه هو الذي يدعوكم، والآب أيضًا، وذلك من خلال وساطتنا. وهل هناك ما

---

[١٣٢] ٢كو٥: ٢٠.

يُعادل عظمة وقدر هذه المحبة الفائقة؟ لأنه بالرغم من أن الله الآب قد أُهين، وهو الذي أحسن إلينا بلا حدود، ليس فقط لم يُعَاقِبنا، بل بذل إبنه، لكي يُصالحنا. وليس فقط لم يقبل البشر بهذه المصالحة، بل وقتلوا الإبن الوحيد. لكنه مرة أخرى يُرسل سفراء آخرين لكي يدعوننا، لذلك فهو وحده الذي يستحق كل الإكرام من خلال هذه الإرسالية التي له.

وماذا يطلب؟ يطلب أن "تصالحوا مع الله"، لم يقل إطلبوا من الله أن يتصالح معكم، لأن الله لا يُبغِض، بل أنتم الذين تُبغِضون، الله لا يُبغِض أبدًا. وبإعتبار أن الإبن وسيط موكل إليه العمل ومُرسل، يقول عنه: " لأنه جعل الذي لم يعرف خطية خطية لأجلنا". أنا لا أَشير إلى الأمور القديمة، أي أنكم أهنتموه دون أن يؤذيكم، بل إنه قد أحسن إليكم، وأنه لم يُعَاقِبكم، بل إنه دعاكم أولاً، بالرغم من أنه أُهين أولاً. لا ينبغي أن نشير الآن إلى أي شيء من هذه الأمور، لكن أليس هذا عدلاً أن تتصالحوا الآن مع الله، فقط لأجل ما فعله لأجلكم؟ وماذا فعل؟ " جعل الذي لم يعرف خطية خطية لأجلنا". وحتى وإن لم يفعل شيئًا آخر، سوى هذا الأمر، فلتفكر جيدًا، كم هو أمر هام أن يبذُل إبنه، لكي يُخلّص الذين أهانوه. لكنه حقّق ما هو أعظم من ذلك بكثير، وهو أنه ترك البار البريء ليُذبح عوضًا عن الخطاة. ولم يقل هذا فقط، بل أشار إلى ما هو أكثر أهمية بكثير، وما هو هذا الأمر؟ يقول إن ذاك الذي لم يفعل خطية ولم يعرف خطية، ذاك الذي هو البر ذاته، قد جعله خاطيء. أي أنه تركه ليُحَاكم كخاطيء، وأن يُصلَب كملعون، لأن كل مَن كان يعلق على خشبه، هو

ملعون. فموت الصليب كان أسوء من أي ميته آخرى، الأمر الذي أشار إليه في موضع آخر، قائلاً: " وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ"[١٣٣]. وهذا الموت لم يكن فقط نوع من العقوبة، بل إهانة كبيرة.

فكّر إذًا في هذه العطايا الكثيرة التي قدمها لك. بالتأكيد هو أمر غاية في الأهمية، عندما يكون ذاك الذي يُقدم حياته، هو بلا خطية، وعندما يكون قد قدمها لأجل الخطاة، ولم يمت فقط، بل مات كملعون، وليس فقط كملعون، بل إنه منحنا بهذه الطريقة، خيرات عظيمة، والتي لم تكن أبدًا في مُخيّلتنا، يقول: " لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللّهِ فِيهِ."[١٣٤]. أية كلمات وأي عقل يستطيع أن يُعبّر عن هذا الأمر؟ يقول الذي بلا خطية قد جعله خطية، حتى يجعل الخطاة، أبرارًا بلا خطية. أو مَن الأفضل أن نقول، إنه لم يقل هذا فقط، بل قال ما هو أعظم من ذلك، لم يُشر إلى ملمح ما، بل أشار إلى جوهر الأمر ذاته، أي أنه لم يقل: أنه قد جعله خاطىء، بل جعله " خطية". ليس فقط أنه جعل ذاك الذي لم يخطىء أبدًا. بل ولا حتى قد عرف خطية، خطية، حتى نصير نحن ماذا؟ لم يقل أبرار، بل " بر"، وليس فقط بر، بل " بر الله" لأنه هذا البر، هو لله، في اللحظة التي كان ينبغي فيها حتى نتبرر، أن لا يوجد ولا حتى وصمة صغيرة فينا، بل إننا سنتبرر، بسبب نعمة الله، والتي بها ستُمحى كل خطية. وهذا البر سيَمحي في نفس الوقت كل إفتخار، طالما أن مانحه هو الله، هكذا تتضح عظمة العطية. لأن الهبة الأولى، هي بر الناموس، بينما الثانية هي " بر الله".

---

[١٣٣] في٢:٨.

[١٣٤] ٢كو٥:٢١.

محاسبة النفس

ولذلك يطلب ق. يوحنا ذهبي الفم من الجميع أن يترجوا مراحم الله، وأن يقدموا محبة صادقة للجميع، وأن يدينوا أنفسهم على ما أرتكبوه في حق الغير، قبل أن يدينهم الآخرون، قائلا: إذًا ونحن نُفكر في هذه الأمور، لنخشى من هذه الكلمات، أكثر جدًا من الخوف من الجحيم، فلنوقر ونقدّر هذه العطايا، أكثر جدًا من ملكوت السموات، ولا ينبغي أن نعتقد أن الجحيم هو أمر مخيف، بل الخطية هي المرعبة جدًا. ينبغي علينا نحن أن نطلب عقاب لأنفسنا، لأننا أظهرنا جحودًا للمحسنين إلينا لكن الآن لو أن هناك شخصًا ما عاشق، ولم يجد صدى إيجابي لعشقه، في مرات كثيرة يُقبل على الإنتحار، وإن وجد قبول وصدى لعشقه، لكنه وقع في خطأ ما، يعتقد كيف أنه لا يستحق أن يعيش. لكننا عندما نُهين محب البشر الوديع الرقيق، ألا نستحق أن نلقي بأنفسنا في نار الجحيم؟ سأتكلم عن أمر عجيب، ويستحق الدهشة، وربما غير مُصدق لدى الكثيرين. مَن يُعاقَب لأنه أغضب الله محب البشر، يجب عليه إن كان يحب الرب كما ينبغي له أن يُحبه، أن يترجى ويطلب مراحم الله، أكثر جدًا من ذاك الذي لم يُعَاقَب.

وهذا الأمر يمكن للمرء أن يتحقق منه، خلال الحياة اليومية. بمعنى أن ذاك الذي يكون قد ظلم شخص محبوب لديه جدًا، يرتاح ضميره، فقط، عندما يُعاقِب نفسه ويؤنبّها، تمامًا كما قال داود النبي: " هَا أَنَا أَخْطَأْتُ، وَأَنَا أَذْنَبْتُ، وَأَمَّا هؤُلاَءِ الْخِرَافُ فَمَاذَا فَعَلُوا؟ فَلْتَكُنْ يَدُكَ عَلَيَّ وَعَلَى بَيْتِ أَبِي"[١٣٥]. وعندما فَقَدَ أبشالوم

---

[١٣٥] ٢صم٢٤: ١٧.

طلب من الرب أن يُنزِل به أشد العقاب، وإن كان لم يَظلم، بل ظُلِمَ، ولأنه كان يُحب أبشالوم الذي مات، عذَّب نفسه بحزن شديد وثقيل، طالبًا لنفسه العزاء، بهذه الطريقة. لنطلب إذًا العقاب لأنفسنا من أنفسنا، عندما نظلم أولئك الذين لم يكن لنا أن نظلمهم. ألا ترون أولئك الذين يفقدون أولادهم الأحباء، كيف يؤذون أنفسهم، ويشدّون شعر رؤوسهم، فهم يعذبون أنفسهم هكذا لأجل أحباءهم، وهذا يريحهم جدًا، بل وحتى وإن لم يكن قد سبَّبنا ضررًا لأحباءنا، فأن نُعاني لمعانتهم، فهذا يُريحنا، ألا يُخفف أو يلطف بالأكثر جدًا العقاب، عندما نكون نحن أنفسنا الذين قد أثرنا الغضب، وتصرفنا بإزدراء؟ هذا أمر واضح للجميع. فلو أن أحد يُحب المسيح، كما ينبغي له أن يُحبه، سيسلك هكذا كما أقول، ولن يقبل إلا بالعقاب، حتى وإن غفر له المسيح له المجد. لأن كل مَن سيُغضبه، يجب أن يكون لديه الرغبة في أن يحتمل أشد العقاب.

أعرف جيدًا بأن ما أقوله، هو أمر غير مُصدق لدى الكثيرين. لكن الحقيقة، تتجلى فيما أقوله. فإن كنَّا نُحب المسيح كما ينبغي لنا أن نُحبه، فلنُعاقِب أنفسنا بأنفسنا على خطايانا. لأن أولئك الذين يحبون، لا يتضايقون، إن عذبوا أنفسهم، بسبب أعمالهم التي أغضبت أحباءهم، بل يحزنون بالطبع لأنهم أغضبوهم. وحتى وإن لم يُعَاقبهم الإنسان الذي أغضبوه، فإنهم يُعانون أكثر. فإن أردت أن تُعَاقبهم ربما تُريحهم. إذًا ينبغي ألا نخشى من العقاب الأبدي، بل من غضب الله. لأن غضب الله هو أكثر رعبًا من العقاب الأبدي، لا يعود يرى، بسبب الغضب، إنه

أصعب من كل شيء، والأكثر فزعًا ورعبًا من أي عقاب. ولكي تفهم عِظم هذا الغضب. فكّر فيما قلته، فلو أن ملكًا ما، قد رأى لص وهو يُعذَب ويتألم. ثم قدَّم إبنه الوحيد لكي يُذبح بدلاً منه، ونقل العقوبة من على المجرم، ليضعها على إبنه الذي لم يرتكب أي جُرم، ليس فقط الموت، بل والخطية أيضًا، حتى ينقذ المجرم، ويُخلّصه من السمعة السيئة، فإن حدث بعد كل ذلك أن رفعه إلى مقام كبير، وبعد هذا الخلاص وهذا المجد الذي قدّمه له والذي لا يُعبَّر عنه، أهانه المحسن إليه، ألا يُفضِّل هذا الشخص - إن كان يحمل عقلاً - أن يموت مرات عديدة، على أن يُظهِر كل هذا الجحود؟

فلنفكر في هذا الأمر الآن، ولنتنهد بمرارة، لأننا أغضبنا المحسن إلينا. وينبغي إن لا نتجرأ أكثر، على أساس أنه يواجه إزدراءنا بطول إناة، بل لنبكي بمرارة لأجل هذا تحديدًا. لأنه في المجتمع الإنساني عندما يُضرَب أحد على خده الأيمن، ويحوّل الأيسر، فإنه يكون في موقف دفاعي أفضل، على أن يوجه ضربات لا حصر لها. وعندما يُساء إلى إنسان بكلمات نابية، وليس فقط لا يُقابل هذه الإساءة بالإساءة، بل ويبارك المسيء، عندئذ يكون كمن يضرب بأكثر قوة على أن يوجه له إهانات لا حدود لها. إذًا إن كان في المجتمع الإنساني، عندما نُهين أحد، ويقابل هذه الإهانة بصبر وإحتمال، نشعر بالخجل، فيجب بالأكثر على كل مَن يُخطئ بشكل يومي، ولا يُعاني أي شيء مخيف من قِبل الله، أن يشعر بالخوف. لأنهم يجمعون فوق رؤوسهم عقوبات كثيرة جدًا.

إذًا ونحن نُفكر في كل هذه الأمور، فلنخاف في كل الأحوال من الخطية، لأن الخطية هي الجحيم، هي العقاب الأبدي، هي شرور لا حصر لها. وليس فقط أن نخاف منها، بل أن نتجنبها، وأن نهتم أن نُرضي الله في كل لحظة، لأن هذا هو ملكوت الله، هذه هي الحياة الحقيقة، هذه الخيرات غير المحدودة.

مات لأجل الخطاة

ولذلك يقول الرسول بولس " لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا. فَبِالأَوْلَى كَثِيرًا وَنَحْنُ مُتَبَرِّرُونَ الآنَ بِدَمِهِ نَخْلُصُ بِهِ مِنَ الْغَضَبِ! لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا وَنَحْنُ أَعْدَاءٌ قَدْ صُولِحْنَا مَعَ اللهِ بِمَوْتِ ابْنِهِ، فَبِالأَوْلَى كَثِيرًا وَنَحْنُ مُصَالَحُونَ نَخْلُصُ بِحَيَاتِهِ!"[١٣٦].

يقول أيضًا: إنتبه، فهو أولاً: يريد أن يؤكد لهم على الخيرات التي تنتظرهم في الدهر الآتي. ويوضح كيف كان إبراهيم البار ينظر إلى إمكانية حصوله على تلك الخيرات، قائلاً إنه "*وَتَيَقَّنَ أَنَّ مَا وَعَدَ بِهِ هُوَ قَادِرٌ أَنْ يَفْعَلَهُ أَيْضًا*"[١٣٧]، وهذه الخيرات قد تحققت بعد ذلك من خلال النعمة التي أُعطيت لنا، ثم من خلال الضيقات. لأنها تقودنا إلى الرجاء، وأيضًا من خلال عمل الروح القدس الذي أخذناه. لكنه برهن فيما بعد على هذا الأمر، من خلال الحديث عن الموت الذي ملك علينا وخطايانا السالفة. الواضح ـ وهو الأمر الذي أشرت إليه سابقًا ـ أن الكلام يحمل بُعدًا واحدًا، لكنه في الحقيقة يحمل أبعاد ثانية وثالثة وأكثر من ذلك.

---

[١٣٦] رو٥: ٨-١٠.

[١٣٧] رو٤: ٢١.

أولاً: أنه مات.

ثانيًا: أنه مات لأجل الخطاة.

ثالثًا: أنه صالحنا وخلصنا وبررنا وجعلنا أبناءً وورثة.

الواضح أيضًا أننا لن نكون أقوياءً فقط في مواجهة الموت، بل نحن أقوياء بواسطة هذا الذي أُعطيَ لنا بالموت. وإن كان من المؤكد أننا ونحن بعد خطاة قد مات المسيح لأجلنا، فهذا في حد ذاته يُعَد دليلاً على محبة الله التي لا توصف، أما من حيث أنه مات ونحن بعد خطاة وأعطى عطايا لا يُعبّر عنها، فإن هذه العطايا تفوق كل امتياز وتقود إلى الإيمان، حتى بالنسبة لِمَن فقد الحس تمامًا. لأن الذي خلّصنا، ليس سوى ذاك الذي أحبنا بشكل فائق، على الرغم من أننا كنّا خطاة، حتى أنه قدّم نفسه للموت لأجلنا. أرأيت كم يُساهم هذا الكلام المشار إليه في التطلع نحو خيرات الدهر الآتي؟ لأنه قبل أن يتحقق هذا، كان هناك أمران يتسمان بالصعوبة يعوقان نوالنا الخلاص:

أولاً: أننا كنّا خطاة.

ثانيًا: كان ينبغي أن يموت الرب عنا لكي نخلص.

وهذا يعنى أن الخلاص كان يستحيل إتمامه بالفعل قبل (موت الرب)، وأن الخلاص كان يحتاج لمحبة غامرة، فإن كان كل هذا قد تحقق، فما تبقى هو أمر سهل التحقيق، فلن يسود علينا الموت فيما بعد، لأننا صرنا محبوبين جدًا.

فذاك الذي قهر الأعداء وأذلهم، ألا يُقدم لنا العون؟ الآن وقد صرنا محبوبين، وحيث لا توجد حاجة بعد لأن يُسلّم ابنه للموت ثانيةً، فنحن نرى أن المرء لا يُقدِم على إنقاذ الآخر، لإعتبارات

كثيرة، إما لأنه لا يريد، أو لأنه لا يستطيع حتى ولو أراد، وهى أمور لا نستطيع بالطبع أن ننسبها لله، لأنه قد سلم ابنه (للموت). فمن حيث إنه يستطيع، فهذا ما أظهره، لأنه قد برّرنا ونحن بعد خطاة. إذًا هل هناك عائق يمكن أن يمنعنا بعد ذلك أن نتمتع بخيرات الدهر الآتي؟ لا يوجد.

بعد ذلك يؤكد الرسول بولس بأن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد فقط، بل قال بإننا يجب أن: " نَفْتَخِرُ أَيْضًا بِاللهِ، بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي نِلْنَا بِهِ الآنَ الْمُصَالَحَةَ "[١٣٨]. وهذا يعني أننا لم ننل فقط الخلاص، بل أننا نفتخر أيضًا بهذا الخلاص، وتحديدًا بالخلاص الذي قد يتصور البعض أننا نخجل منه، لأن هذا هو ما نفاخر به. لأنه وبينما نحن نسلك في كل هذه الشرور، إلا أنه قد منحنا الخلاص، وهذا دليل قوي جدًا على أن محبة ذاك الذي خلّصنا، وهي محبة تفوق الوصف (وهذا ما يدعو للافتخار). لأنه لم يخلّصنا بملائكة أو رؤساء ملائكة، بل بابنه وحيد الجنس[١٣٩]. وليس هذا فقط، بل إنه قد ضفّر لنا أكاليل افتخار كثيرة جدًا بدم إبنه. لأنه لا يوجد شيئًا يعادل - إذا ما تحدثنا عن سبب المجد والافتخار - حقيقة محبة الله لنا، ومحبتنا نحن لذاك الذي أحبنا. فهذا الحب، جعل الملائكة والرئاسات والقوات في بهاء، وهذا الحب هو أعظم من مجرد التمتع بالملكوت. ولذلك فإن الرسول بولس قد وضعه قبل الملكوت. ومن أجل هذا فإنى أطوّب القوات غير المرئية، لأنهم يُحبون الله ويخضعون له في كل شيء . ولهذا

---

[١٣٨] رو٥:١١.

[١٣٩] هذا ما تصلّيه الكنيسة في صلاة الصُلح: " لا ملاك ولا رئيس ملائكة ولا رئيس آباء ولا نبي إئتمنتهم على خلاصنا، بل أنت بغير استحالة تجسدت وتأنست .. " (القداس الغريغوري).

السبب أيضًا فإن النبي قد أعجب بهم، قائلاً: "*بَارِكُوا الرَّبَّ يَا مَلاَئِكَتَهُ الْمُقْتَدِرِينَ قُوَّةً. الْفَاعِلِينَ أَمْرَهُ*"[١٤٠]. ولهذا أيضًا فإن إشعياء النبي قد امتدح خدمة السيرافيم[١٤١]، مشيرًا إلى فضيلتهم العظيمة من حيث إنهم يقفون بالقرب من العرش الإلهى، الأمر الذي يُعَد دليلاً على المحبة الكبيرة.

فلنتبع نحن أيضًا القوات السمائية، ولنهتم ليس فقط بأن نقف بالقرب من العرش، بل أن نحمل داخلنا ذاك الذي يجلس فوق العرش، لأنه أحب حتى الذين أبغضوه ومازال يُحبهم إذ أنه: "*يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ*"[١٤٢]. إلاّ أنه ينبغي عليك أنت أن تحبه، على الأقل طالما أنه أحبك. لكن كيف يستطيع ذاك الذي يحب أن يُهدد بجهنم والجحيم والعقاب؟ يهدد بهذا من أجل المحبة ذاتها. لأنه يريد أن يجتث خطيتك بالترهيب الذي يستخدمه كلجام يضبط به اندفاعك نحو الأمور الأكثر سوءًا، وهو يصنع كل شيء لكي يضبط سلوكك ويوجهك نحو الطريق المستقيم، سواء عن طريق الوعد بالخيرات أو بالتحذير من الانحدار إلى الأمور المحزنة، فيعود بك إلى الطريق المؤدى إليه، حتى يُبعدِك عن كل الشرور التي هى أكثر فزعًا من الجحيم ذاته.

لكن لو أنك تسخر مما أقوله، وتريد أن تحيا في الخطية على الدوام، إعتمادًا على مجرد إدانتك لنفسك يومًا واحدًا، فهذا لا يُعَد أمرًا غريبًا على الإطلاق. إنه بالحقيقة دليل على إرادة تفتقر

---

[١٤٠] مز١٠٣: ٢٠.

[١٤١] إش٦: ١-٧.

[١٤٢] مت٥: ٤٥.

للكمال، وعلى غياب الوعي، وعلى مرض غير قابل للشفاء. لأن الأطفال الصغار عندما يرون الطبيب وهو يكوي جرحًا[١٤٣]، أو يقوم بإجراء عملية، فإنهم يهربون مبتعدين عن المكان وهم يصرخون صرخات قوية مُفضلين بالأكثر أن يعانوا باستمرار من تلك الآلام التي ألمت بجسدهم، على تدّخل الطبيب، حتى وإن أدى تدخله إلى الشفاء والتمتع بصحة جيدة، طالما أنهم غير قادرين على احتمال الألم مؤقتًا. لكن أولئك الذين لديهم إدراك، يعرفون جيدًا أن المرض هو أكثر رعبًا من الجراحة، تمامًا كما أن الخطية هى أكثر سوءًا من العقوبة. إذًا فأحد الأمرين يعنى الشفاء والصحة. بينما الآخر يعنى البلية والمرض المستمر.

أما من حيث إن الصحة هى أفضل من المرض، فهذا أمر واضح للجميع . كما أنه يحق لنا أن نُرثي اللصوص، لا عندما يمزقون جيوبهم، بل عندما ينقبون الحوائط ويقتلون . فإن كانت النفس هى أفضل من الجسد، وهى هكذا بالفعل، فإذا ما فسدت. يكون أمرًا مبررًا أن نتنهد ونحزن عليها، لكن لو أنها لم تشعر بأنها فسدت، فإنه لهذا السبب تحديدًا يجب أن نحزن عليها بالأكثر. لأنه ينبغي حقًا أن نحزن بالأكثر على أولئك الذين يرغبون في ممارسة الفجور والفسق، وأولئك الذين يسكرون . وقد يتساءل المرء لماذا نفضل هذه الأمور (الفسق والفجور)، إذا كانت هى الأكثر فزعًا؟ لأنه وفقًا للنموذج الشائع، فإن بعض الناس يُعجبون بالأمور المشينة ويفضلونها، ويحتقرون الأمور الصالحة ويُرذلونها. هذا الأمر من الممكن أن نراه في كل شيء، في

[١٤٣] كان هذا من الإجراءات الطبية المألوفة في ذلك الوقت (القرن الرابع).

المأكولات، وفي محاكاة أساليب حياة معينة، وفي الاستمتاع بالشهوة، وعند النساء، وفي البيوت، وعند المقيدين، وفي الحقول، وفي كل الأمور الأخرى.

إذًا لا يوجد أشر من الشهوة الفاسدة، وعندما أقول الفاسدة، أقصد شهوة اللذة، وشهوة المجد الباطل، وشهوة السلطة، وبشكل عام شهوة كل الأمور غير النافعة وغير الضرورية. لأن مثل هذا الإنسان الذي يحيا في اللذة أو حب الشهوة وفي حياة الرخاوة، يعتقد أنه أكثر سعادة من الجميع، إلاّ أنه في الحقيقة هو أكثر تعاسة من الجميع، وقد جعل نفسه مُثقّلة بآلام مخيفة. ولذلك فإن الله جعل هذه الحياة الحاضرة صعبة، لكي يُخلّصنا من تلك العبودية (عبودية الشهوة)، ويقودنا إلى الحرية الكاملة. ومن أجل هذا فقد هدّد بالعقاب، وربط حياتنا بالأتعاب، لكي يقضي على خمولنا وتوانينا. هكذا فإن اليهود الذين كانوا مُخصصين لصناعة الأوانى الفخارية والأرميد (في مصر)، وقد كانوا أبرارًا، ويُصلّون إلى الله بشكل مستمر، إلا أنهم عندما نالوا الحرية، تذمروا وأغضبوا الله وأصابوا أنفسهم بشرور كثيرة.

وبماذا تصف هؤلاء الذين يُغيّرون آرائهم مرات كثيرة بسبب الضيقات؟ نقول إن التغيير ليس بسبب الآلام، لكن بسبب ضعف أو مرض فيهم . لأنه إن كان هناك مرضًا ما قد أصاب معدة شخص، ورفض أن يتناول دواءًا مر المذاق، كان من الممكن أن يشفيه، فتدهورت حالته، فإننا لن نتهم الدواء، بل المرض الذي أصاب العضو المريض، وهذا أيضًا ينطبق على إلقاء اللوم على سذاجة الفكر. فإن مَن يغيّر رأيه بسهولة بسبب الضيقات،

سيعانى الضيقات بصورة أكثر سهولة، حتى في حالة الراحة والرخاء، إذ أنه يسقط مُقيدًا بالخطية (هذا هو الضيق)، وبالأكثر جدًا سيسقط صريعًا، لو أنه وهو في حالة الضيق قد غيرّ رأيه، لأنه سيُغير رؤيته بالأكثر عندما يكون في حالة رخاوة وكسل. وقد يقول المرء كيف يمكنني أن أثبت على رأيي عندما أكون في حالة ضيق؟ يمكنك أن تكون ثابت الرأى، لو أدركت أنك ستعاني الضيق أو الآلام سواء أردت أم لم تُرِد، فلو أنك تجوز الآلام بشكر، ستربح الكثير، لكن لو كنت تعاني هذه الآلام متأففًا، وفي حالة يأس وانزعاج وتجديف، فلن تجعل الضيقة أو النكبة أقل، بل ستغرق أكثر في الضيقات والمتاعب.

فلنفكر في كل هذه الأمور ولنجعل ما يأتي نتيجة اضطرار، يكون بالإختيار. ما أقصده هو الآتي: قد يفقد شخص ما ابنه، وآخر يخسر كل ثروته، فنقول: إن أدركا استحالة تصحيح ما حدث، فمن الممكن أن يربحا شيئًا من وراء هذه النكبة التي لا شفاء منها، بأن يحتملان هذه الكارثة بشجاعة، وبدلاً من كلام التجديف، يعطيان المجد لله، عندئذٍ فإن الضيقات التي ألمت بهما ستصير سبب عزاء عندما يقبلانها بالشكر. هل شاهدت موت إبنك وهو صغير السن؟ لتقل: " *الرَّبُّ أَعْطَى وَالرَّبُّ أَخَذَ*"[١٤٤]. هل فُقَدتَ ثروتك؟ لتقل " *عُرْيَانًا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَعُرْيَانًا أَعُودُ إِلَى هُنَاكَ*"[١٤٥]. وإن رأيت الأشرار وهم ينعمون، بينما الأبرار يتألمون ويعانون ضيقات لا حصر لها، ولا تعرف كيف تجد سببًا لكل ما

---

[١٤٤] أي١:٢١.

[١٤٥] أي١:٢١.

يحدث لتقل " *صِرْتُ كَبهِيمٍ عِنْدَكَ. وَلكِنِّي دَائِمًا مَعَكَ*"[١٤٦].

فإذا كنت تبحث عن السبب، فكّر في أن الله قد عيَّن يومًا فيه يدين كل المسكونة، وسينزع كل ريبه، لأنه في ذلك الوقت سينال كل أحد ما يستحقه (عن أعماله التي عملها)، تمامًا مثل لعازر والغنى. تذكّر الرسل لأنهم بينما جُلِدوا وطُرِدوا وجازوا ضيقات وآلام لا حصر لها، إلاّ أنهم كانوا فرحين لأنهم حُسبوا مستحقين أن يهانوا من أجل إسم المسيح. وأنت أيضًا لو أنك مرضت فليكن قبولك للألم برضى وشجاعة، ولتشكر الله على كل حال، وهكذا ستأخذ نفس المكافأة مع أولئك الذين تألموا من أجل إسمه. لكن كيف يحدث بينما أنت مريض وتعاني، يمكنك أن تشكر الله؟ يمكنك أن تفعل ذلك لو أنك تحبه بالحقيقة. لقد أُلقوا الثلاثة فتية في أتون النار، وآخرون عانوا آلامًا كثيرة داخل السجون، ومع هذا لم يتوقفوا عن شكرهم لله، فبالأولى كثيرًا أولئك الذين يعانون من أمراض شديدة ينبغي أن يشكروا الله.

لأن رغبة الإنسان القوية تستطيع أن تنتصر على كل شيء. فالشوق الإلهى عندما يلتهب فى داخلنا، فإنه يتفوق على كل شيء، ولن يعوق هذه الرغبة أى شيء، لا نار ولا قيود، ولا فقر، ولا مرض، ولا موت. وطالما أن الإنسان يحتقر كل الأشياء، فسيرتفع إلى السماء، ولن يكون أقل من الساكنين هناك، ولن ينظر لأي أمرٍ آخر، لا سماء ولا أرض ولا بحر، لأن نظره يكون معلّقًا بأمر واحد فقط، وهو جمال المجد السمائى. إن الأمور المحزنة أيضًا لا يمكنها أن تُثبّط من عزيمة الإنسان وهو يسلك في

---

[١٤٦] مز ٧٣:٢٢.

هذه الحياة الحاضرة، ولا الأمور المادية ستجعله يتباهى ويفتخر. فليكن لدينا شوق لهذا العشق الإلهي، الذي لا يُعادله شيئًا من خيرات هذه الحياة أو الخيرات المستقبلية، ومن الأفضل أن نقول قبل كل هذا إنه لا يوجد شيء يعادل طبيعة هذا العشق الإلهى. لأننا - بهذا العشق الإلهي - سننجو من عقوبات الحياة الحاضرة، وعقوبات الدهر الآتي وسنتمتع بملكوت الله. وقبل ذلك نقول إن لا الخلاص من جهنم، ولا التمتع بالملكوت يعتبر أمرًا ذي قيمة كبيرة، إذا ما قورن بذاك الذي سنراه في الدهر الآتى. لأن الأعظم من كل هذا هو محبة المرء للمسيح، وتمتعه بمحبته. لو ساد ذلك على حياة البشر، فهذا أسمى من كل اعتبار. وعندما يتحقق هذا فأي حديث وأي فكر يمكن أن يُعبّر عن طوباوية هذه النفس؟ فليس هناك ما يُساوي اختبار تذوق هذه السعادة.

ومادمنا قد هجرنا كل شيء لا يُرضى صلاح الله، سنصل إلى إدراك مذاقه هذا الفرح الروحى، والحياة الطوباوية، وكنز الخيرات التي لا تُحصى، فلنكرس أنفسنا للسلوك بمحبة من أجل سعادتنا، وإعلان مجد الله الذي نشتهيه.

المصالحة مع الله

لقد طرح الرسول بولس موضوع مصالحة الإنسان بالله، كإحد ضرورات التجسد الإلهي، كما جاء بالرسالة الثانية لأهل كورنثوس (٥:١٨-٢١)، والذي أكد فيها على أن الله كان في

المسيح مصالحًا العالم لنفسه وفي الرسالة إلي أهل أفسس، يقول: " وَيُصَالِحَ الاثْنَيْنِ فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ"[١٤٧].

فهو لم يقل "يصالح" فقط. بل ما يعنيه أن هذا الصُلح هو صُلح تام وكامل، مُظهرًا بهذا أن الطبيعة الإنسانية كانت غير مُصَالحة مع الله، كما هو الحال مع القديسين قبل الناموس. ثم يشرح عبارة "في جسد واحد"، أي في جسده، ويكمل "مع الله". وكيف حدث هذا؟ حدث هذا بعدما جاز الآلام وتحمل الإدانة "بالصليب قاتلاً العداوة به". لا يوجد كلام دقيق وحاسم أكثر من هذا[١٤٨].

يقول الرسول بولس إن موته قتل العداوة وأفناها. وليس ذلك بأمر أحد آخر، ولا بما عمله فقط، بل بالآلام التي جازها. لم يقل ألغاها، أو أبطلها، بل قال "قاتلاً العداوة"، حتى لا تكون هناك فرصة البته لتقوم مرة آخري. وكيف لها أن تقوم؟ تقوم بسبب شرورنا الكثيرة، ولكن مادمنا متحدين معًا في جسد المسيح، فلن تقوم هذه العداوة مرة أخري، بل تبقى ميته، أي أن هذه العداوة لن تقوم مطلقًا، وإن ظهرت عداوة أخرى، فهي ليست تلك العداوة القديمة التي هدمها المسيح، بل أنت الذي تُنشىء عداوة أخرى. يقول الرسول بولس " لأَنَّ اهْتِمَامَ الْجَسَدِ هُوَ عَدَاوَةٌ لِلهِ"[١٤٩]. فإن لم نهتم بأي شيء جسدي، فلن تُنشأ عداوة أخري، بل يظل ذلك السلام الإلهي قائمًا.

---

[١٤٧] أف٢:١٦.

[١٤٨] يقول القديس كيرلس الكبير: [لن يستطيع أحد أطلاقًا أن يتحد بالله الآب إلا عن طريق وساطة المسيح. لأنه هو الوسيط بين الله والناس، فهو من خلال نفسه وبنفسه يوحد البشرية بالله] شرح إنجيل يوحنا، للقديس كيرلس الكبير، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المجلد الثاني، ص١٤٩-١٥٠.

[١٤٩] رو٨:٧.

وكما يوضح ق. يوحنا ذهبي الفم، بأن المصالحة التي تممها الله في المسيح يسوع، تقتضي منَّا، أن نسمو فوق إهتمامات الجسد، لأن إهتمام الجسد هو عداوة لله، فيقول: تأمل إذًا كم هو سيئ جدًا وشرير أن تعود للعداوة مرة أخرى، بينما الله قد صنع الكثير لكي نتصالح معه. إن هذه العداوة لا تتطلب معمودية جديدة ونقاوة، بل يعقبها جهنم، ولن يكون هناك بعد غفران للخطايا، بل لومًا وإدانة. إن إهتمام الجسد هو التمتع، والإسراف، والطمع، وكل خطية. ولكن لماذا يدعوها إهتمام الجسد، طالما أن الجسد لا يمكنه أن يفعل شيئًا بدون النفس؟ إنه لا يقول هذا لإدانة الجسد، مثلما يقول "الإِنْسَانَ الطَّبِيعِيَّ"[150]، فهو لا يقول هذا لكي يدين النفس. لأنه لا الجسد ولا النفس لديهما القدرة من ذاتهما أن يصنعا أي شيء نبيل وعظيم، إن لم ينالا نعمة من فوق. من أجل هذا فإن الأمور التي تمارسها النفس من ذاتها، تُسمى أمور طبيعية، ليس لأنها طبيعية بالحق، بل لأنها تقود إلى الهلاك، إذ إنها لا تنال المعونة من الله[151]. لأن الأعين أيضًا هي أعضاء جيدة، ولكنها بدون النور ترتكب أخطاء لا حصر لها، وهذا يرجع لمرضها، وليس لطبيعتها. إذًا لو كانت الأخطاء طبيعية، ما كُنَّا لنستطيع أن نستخدمها حيث يجب أن نستخدمها. لأنه لا يوجد شيء شرير بالطبيعة.

لماذا يدعو الإهتمامات الجسدية، خطية؟ لأنه حين تسود الإهتمامات الجسدية على ذاك الذي يحيا في هذه الأزمة ويتشبث بها، فإنه سينشأ عنها شرور لا حصر لها. لأن عمل الجسد هو في

---

[150] اكو ٢:١٤.

[151] "الإنسان الطبيعي" هنا بحسب رؤية القديس يوحنا ذهبي الفم هو الإنسان في حالة غياب النعمة الإلهية.

خضوعه للنفس، ولكن أن يسود على النفس، فهذا هو الشر. تمامًا كما أن الجواد يُوصف بأنه جميل وقوي، إلا أن هذا لا يظهر بدون الفارس الذي يمتطيه. هكذا الجسد أيضًا لا يظهر صلاحه إلا إذا إنقطعت ميوله نحو الخطية. بل ولا الفارس تظهر مهارته بدون معرفة وخبرة، لأنه يتحمل مسئولية العمل الأصعب مما تقوم به الخيول. إذًا يجب على الجسد أن يختبر عمل الروح أكثر من أي شيء، وأن يُعطىَ له مجالاً حتى يكتسب هذه المعرفة الروحية، فهي تجعل الفارس أكثر قوة، هذا الروح هو الذي يعطي جمالاً للنفس والجسد. لأنه تمامًا كما أن النفس تُدرَك بالجسد، وتظهره جميلاً، بينما إذا حرمته من طاقتها الخاصة وتأثيراتها، حينئذ سيشبه رسامًا مزج الألوان معًا، ونتج عن هذا، منظر مشوه، إذ أن كل لون سيبدأ في الذوبان والإنحلال، هكذا عندما يترك الروح الجسد والنفس، فإنه سينتج عن هذا الترك، أسوأ وأكبر منظر للتشوه والقبح.

ولا ينبغي أن تُسيء للجسد بإعتباره أقل من النفس، كما أن النفس لا تستطيع أن تحقق أي شيء بدون الروح. وإن كان ينبغي أن نقول شيئًا، فإن النفس تستحق إنتقادًا أكثر من الجسد. لأن الجسد لا يستطيع أن يفعل شيئًا شريرًا بدون النفس، بينما النفس تستطيع أن تفعل الكثير بدون الجسد. لأنه حين يكون الجسد في طور الإنحلال ولا يستطيع أن يَتُوب، فإن النفس تصنع الكثير. فالسحرة والمشعوذون، والحاسدون، يسببون إنهاكًا للجسد. ومن ناحية أخري فإن المتع والملذات لا تعود إلى إحتياج الجسد، بل إلى عدم حرص النفس، أي أن الطعام وليس التنعم هو إحتياج الجسد. فإن أردت أن أضبط إندفاع الجواد، أمسكت اللجام بقوة، بينما الجسد لا يستطيع أن يضبط النفس في شهواتها.

ولماذا يدعوها إهتمامات الجسد؟ لأنها صادرة كلها من الجسد. أي عندما يسود الجسد، ويعزل العقل، وتحرم النفس من السيطرة عليه، فإنه يخطئ. هذا يعني أن عمل الجسد يظهر من خلال خضوعه للنفس، لأن الجسد بحد ذاته، ليس حسنًا ولا شريرًا. فما الذي يستطيع أن يفعله الجسد من ذاته؟ إنه يكون حسنًا حين يكون متحدًا بالنفس وخاضعًا لها. فهو قابل أن يكون صالحًا أو شريرًا، لديه ميل إلى الأثنين. الجسد يشتهي، لكن ليس النجاسة ولا الزنا، بل يشتهي الإتحاد (الزيجي) بالآخر، الجسد يشتهي الطعام لا التنعم،ولا المسكرات، بل شرب الماء. لأنه من حيث أن الجسد لا يشتهي المسكرات، فهذا ما يتضح لك من خلال حدود إمكانياته التي لا يستطيع أن يتخطاها إذا أراد الشراب.

هذا ما يتعلق بالجسد، أما عندما يصل إلى حالة الأنغماس في الملذات ويسمُن، فالأمر هنا يتعلق بشهوة النفس. وبرغم أن الجسد صالح، إلا أنه يعتبر أقل من النفس، وكما أن الرصاص أقل قيمة من الذهب، إلا أن الذهب يحتاج للرصاص عند لحامه، هكذا فإن النفس تحتاج إلى الجسد. وهذا يشبه ما يحدث لطفل من أصل نبيل يمتلك لعبًا ويسلك بعفوية الطفل، فإننا لا نلوم المرحلة العمرية للطفل، بل التصرفات التي تصدر عنه، هكذا الأمر بالنسبة للجسد.

إلا أننا نستطيع أن نكون غير خاضعين للجسد، أن أردنا ذلك، وأن لا نخضع للأمور الأرضية، بل للسماويات وللروح. لأنه عندما يوجد شخص في مكان ما، فإن الحديث عنه لا يدور حول الوضع الذي يكون عليه في ذلك المكان، بقدر ما هو متجه إلى الرغبة

والإرادة. حقًا إننا نقول عن كثيرين حتى لو كانوا متواجدين معنا، أنهم غير موجودين. أي نقول مثلاً أنك لم تكن هنا، أي أنك تفكر في شيء آخر.

السلام الإلهي

هنا يؤكد ق. ذهبي الفم على أن كل النعم الإلهية التي نلناها، وبالأخص السلام الإلهي، هي نتاج عمل المسيح له المجد، قائلاً: أنك كثيرًا ما تقول لشخص ما - مُحلقًا بفكره بعيدًا - أنك لست هنا معنا، أو أقول أنا لست موجودًا هنا معكم فنفسي محلقة بعيدًا، وهل هناك ما هو أكثر من تواجد الشخص معنا بحسب الجسد؟ ومع ذلك لا يبدو جسديًا أنه معنا. فلنرجع إلى أنفسنا، ولنتطلع نحو السماء ونتحد بالروح، ولنقيم في السلام، وفي النعمة الإلهية، بعدما نتحرر من كل الأمور الجسدية.

هكذا يقول الرسول بولس إن الرب يسوع لم يرسل لنا هذه الأخبار المفرحة مع آخر، ولم يعلنها بواسطة شخص آخر، لكنه هو ذاته قد أعلنها بنفسه. لم يرسل ملاكًا ولا رئيس ملائكة، لأن إصلاح كل الشرور الكثيرة، والإعلان عن كل ما قد حدث، لم يكن في إستطاعة أحد آخر، بل فقط من خلال حضوره هو بذاته. لقد قَبِل الرب أن يأتي في صورة عبد وخادم، وأتى "وبشركم بسلام أنتم البعيدين والقريبين". إنه يدعو اليهود قريبين، في مقارنتهم بنا.

يتكلم عن السلام الذي لنا مع الله. يقول لقد صالحنا، والمسيح نفسه يقول: "سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ"[152]، وأيضًا يقول "ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ"[153]، "وَمَهْمَا سَأَلْتُمْ بِاسْمِي فَذلِكَ أَفْعَلُهُ"[154]، وأيضًا "لأَنَّ الآبَ نَفْسَهُ يُحِبُّكُمْ"[155]. هذه جميعها تعد دلائل على السلام الإلهي. ولكن كيف وبأي طريقة؟ "لأن به لنا كلينا قدومًا في روح واحد إلى الآب". هذا لا يعني أن النعمة تكون أقل بالنسبة لنا، وتكون أكثر بالنسبة لليهود، بل هي نعمة واحدة للجميع. إذًا فقد توقف الغضب بموته، وجعلنا أحباء للآب بالروح القدس. أنه يستخدم هنا أيضًا كلمة (في، أي في روح واحد)، مثل كلمة (به) "لأن به لنا كلينا قدومًا في روح واحد"، أي أنه قادنا إلى الآب بالروح القدس.

لقد أعلن أننا رعية مع القديسين، وأن الوعد ليس فقط لليهود، بل أيضًا لأولئك الرجال القديسين والعظماء مثل إبراهيم ومَن كان معه، وموسي، وإيليا. فقد سجَّل أسماءنا مع نفس الرعية. لأنه يقول "الَّذِينَ يَقُولُونَ مِثْلَ هذَا يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ وَطَنًا"[156]. لسنا بعد غرباء عن القديسين ولا نُزلاء. لأن النُزلاء هم أولئك الذين لن ينالوا الخيرات السمائية. لأن "الإبن يبقى إلى الأبد"[157].

فالذي ناله أولئك منذ البداية بأتعاب كثيرة، هذا قد تحقق لنا بنعمة الله. هذا هو رجاء الدعوة.

---

[152] يو ١٤: ٢٧.

[153] يو ١٦: ٣٣.

[154] يو ١٤: ١٤.

[155] يو ١٦: ٢٧.

[156] عب ١١: ١٤.

[157] يو ٨: ٥٥.

ولاحظ كيف أنه يجمع دومًا الأمم، والرسل، والأنبياء، والمسيح معًا، فمن ناحية قد صِرنا جسدًا واحدًا، ومن ناحية أخرى قد صِرنا مبنيين. وفضلاً عن هذا، فإنه يظهر الإتحاد الذي حصل فيما بيننا، حينما يقول "مبنيين على أساس الرسل والأنبياء"، أي أن الأساس هو الرسل والأنبياء. وهو هنا يضع الرسل أولاً، وإن كانوا قد أتوا بحسب الترتيب الزمني بعد الأنبياء، فقد أراد أن يَبني بهذا أساس وأصل واحد للجميع، وأن الجميع بناء واحد. تأمل كيف أن الآباء الأولين هم أساس الأمم. وهو هنا يُركز على هذه الجزئية ويتكلم بدقة أكثر، عندما يتناول هذا الحدث، وأكثر مما تكلم به عن التطعيم في الزيتونة البرية، حيث ذكر إن ذلك يُعَد مجرد تطعيم في الزيتونة، ليس إلا.

لأن الذي فيه كل البناء هو المسيح، إذ هو حجر الزاوية الذي يضبط ويمسك الحوائط والأساسات. لاحظ كيف أنه يربط الجميع معًا، فالرسول بولس يجعل المسيح تارةً يحفظ ويدعم البناء من فوق، حتى يمسك ويضبط كل الجسد، وتارةً أُخري يجعله يدعم البناء من أسفل، بأن يكون هو هذا البناء. ويوضح ذلك بقوله "لكي يخلق الأثنين في نفسه إنسانًا واحدًا جديدًا". لقد جمع الجدارين معًا ووحدّهما بنفسه، كما خلق البناء كله فيه. ويقول أيضًا إنه "*بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ*"[١٥٨]. أي أنه يسند كل شيء.

هذا يعني أن المسيح هو الذي يسند ويضبط كل شيء، سواء الشكل، أو الجدران، أو أي شيء آخر. وهو يدعو المسيح في موضع آخر، بالأساس. يقول "فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَضَعَ أَسَاسًا

[١٥٨] كو ١: ١٥.

آخَرَ غَيْرَ الَّذِي وُضِعَ، الَّذِي هُوَ "يَسُوعُ الْمَسِيحُ"[159]. "الذي فيه كل البناء مركبًا" هكذا يُظهِر الأمر المستقيم، أن البناء كامل وتام وأنه من غير الممكن بأي طريقة أخري، أن يأتي أحد إلى هذا البناء إن لم يحيا بكل جدية وتدقيق.

ثم يؤكد على الأمر الذي له أهمية كبيرة، هو أننا هيكل روحي، إذ يقول: إن كل واحد فيكم يعتبر هيكل، والجميع معًا هيكل، والله يسكن فيكم بإعتباركم جسد المسيح، وهيكل روحي. لم يتكلم عن مجيئنا نحن لله، بل قال "به لنا قدومًا إلى الآب"، لأننا لم نأت إلى الآب من تلقاء أنفسنا، بل هو الذي قادنا إليه. هكذا قال المسيح له المجد: " ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي" وأيضًا "أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ"[160]. لقد جمع هؤلاء مع القديسين، ثم عاد أيضًا للمثال السابق، ولم يتركهم لكي ينفصلوا عن المسيح. إذًا سيبني هذا البناء (أي جسده) إلى أن يجئ، ولهذا قال الرسول بولس "كَبَنَّاءٍ حَكِيمٍ قَدْ وَضَعْتُ أَسَاسًا"[161]، وقال أيضًا إن المسيح له المجد هو الأساس. لقد تكلّم عن هذا بأمثلة، مثلما قال عن الآب أنه "الكرام"، وعن نفسه أنه أصل الشجرة أي (جذر الشجرة).

---

[159] ١كو٣:١١.

[160] يو١٤:٦.

[161] ١كو٣:١٠.

سعر النسخة :



• المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية ت : ٢٢٤١٤٠٢٣.
E-mail: opcc2007@yahoo.com Website: www.patristiccairo.com